المجلس الأعلى للثقافة

تأملات على سور حجرى

تاليف
سامى فريد

القاهرة
١٩٨٤

رقصات الضــوء الشاحب

يرتعش قرص الشمس •• يصفر لونه ويحمر •• بعد قليل تعطى الشمس ظهرها للدنيا •• تختفى •• فيلقى الليل بنفســه على القرية •• يطب عليها كالقضــاء •• يحوم فوقها فترة ثم ينقض عليها •• يسقط فوقهــا كالسهم فتنطرح تحته مضروبة بعصا سيدها النهار ••

كالجثــة •• تنتفض مرة أو مرتين ثم تســكت حركتهــا وتستسلم •• يغلبها الاعيــاء فتنام •• تتمدد الى جوار الترعة شريطا أسود اللون وسط مساحات الخضرة غير المحدودة •

تتنادى الجنادب وذكور الضفادع ويقفز فأر مذعورا من حقل الى حقل يعبر شريط الأرض الضيق فى سرعة يتوارى عن أعين بومة تطارده •• يختبىء خلف أعواد النبات الساكن وتهمد حركته ولا تبقى الا شواربه تهتز تتشمم المكان حوله لتتعرف عليــه •

تهب على الحقول نسمة خفيفــة تتخــلل أوراق النبــات فتخشخش •• تخدش صمت الليل حتى يقطعه صوت نباح كلب من بعيد •• فترة •• ثم يعود السكون يلف كل شىء •

تتراقص النجوم فى السماء •• تغمز بعيونها من خـلال سواد الليل •• تحتضن الطيور صغارها تحت أجنحتها فتنكمش الصغار تبحث عن الدفء والأمان وتقبع ساكنة تغمض عيونها لا تفكر فى شيء •

على أول الطريق الزراعى الداخل القرية يظهر شبحه ••• حقيبته فى يده •• يمتد ظله أمامه يتحسس تراب الطريق البارد يتقدم يسبقه •• تنتقل الحقيبة من يد الى يد •• خطواته تعرف الطريق تستطيع أن تمشى فيه مغمضة العينين •• ترتفع ذرات الغبار تحت وقع الخطوات القوية المنتظمة •• تدور حول جلد الحذاء اللامع •• تسقط فوقه وتتخلل مسام الجورب لتلتصق بعرق القدمين •

على البعد تلوح بعض أضواء باهتة لمصابيح الفتيل المملوء بالغاز فى فتحات النوافـذ يتراقص لهبها مع هبـات الهواء •• يتلوى دخانها يرسم حلقات سوداء سرعان ما تضيع فى الظلام •

من بين أعواد النبات تطل العينان ممتلئتين بالغدر تحملهما الماسورة الباردة •• تدور العينان المظلمتان تبحثان عنه حتى تعثران عليه •• فى منتصف ظهره تماما تسددان نظرتهما •• تمتد الأصبع الخائنة تتسلق حديد الزناد البارد تلتف حوله تعصره •• ثم فجأة •• طراخ •• يطرقع البارود داخل الماسورة ويندفع

خارجا من العينين .. يتوهج الشرر فى الظلام وتختفى العينان ثانية وسط أعواد النبات .

يتمزق صمت الليل لحظة ثم يسكن كل شىء .

يحس بالنار فى ظهره .. تسقط الحقيبة من يده .. ترتخى الأصابع فتنزلق الى الأرض .. تمتد كفاه محمومتان تبحثان عن مكان العيار فلا تستطيعان الوصول اليه .. يحس بدمه ساخنا لزجا يسيل خطان من ظهره .. يدور حول نفسه .. عيناه تفتشان وسط كتل السواد عن الفاعل فلا تريان الا بعض أعواد النبات تهتز بلا اكتراث .. يسمع صوت خشخشتها عاليا . تتكسر أوراقها الجافة تحت وقع أقدام تعدو هاربة .. ينتفض طائر فى عشه ثم يسقط ساكنا يرقب المشهد بعينين مذعورتين .. يحس بأنفاسه تتسارع .. يتطلع الى نهاية الطريق .. الأضواء الشاحبة ما زالت كما هى تتراقص على البعد .. كل شىء كما هو .. لم يستيقظ انسان .. يقرر أن يركض حتى البلدة .. لا يريد أن يموت .. تلتف ساقاه وتتخبط أقدامه .. يتعثر ويسقط . يجاهد لينهض ويواصل الركض .. أنفاسه تهرب منه .. تتكاثر حبات العرق البارد غزيرة فوق جبينه .. يشوى الألم ظهره .. يزوم يحبس فى فمه الصرخة .. لا يريد أن يصرخ .. الرجال لا يصرخون .. يرتفع ايقاع الألم .. يحس بروحه تغادر جسمه .. يضغط

على أسنانه •• لا يستطيع أن يسكت • لا يحتمل الألم ••
يفتح فمه فتنطلق منه ااااه واحـدة مرعوبة •• خشنة •• فيها
بحة ضعف •• تدور المشاهد أمام عينيه •• تظلم شيئا فشيئا ••
تمتد يده تستندتمتد يده تستند الى الفراغ فيسقط •• ينطرح
جسده ممددا على ظهره فى خط مائل فوق تراب الطريق ••
ترمش عيناه أمام ضوء النجوم البعيدة ثم تنغلقان •• وترتخى
يده الى جواره مفرودة الأصابع غير بعيدة عن الحقيقة ••

يرخى الليل قبضته على القرية •• يفك أصابعه المتخشبة
ويرفعها عنها أصبعا أصبعا فتبدأ تدب فيها بعض الحركة ••

يتقلب طفل تحت لحاف مهترىء ويحك مؤخرته بأظافره
المتسخة •• تعتدل امرأة فى فراشها •• تجلس •• تفرك عينيها
وتهرش رأسها • تمتد أصابعها تعدل العصبة فوق رأسها ••
تلتفت ثم تنادى على زوجها •• يتقلب الرجل فى ضجر ثم يعتمد
على مرفقه يتهيأ للقيام ••

يقفز أحد الديكة فوق مرتفع من سطح البيوت •• يصفق
بجناحيه ويشد رقبته ويصيح فيحمل نسيم الفجر صوت صياحه
الى كل الاذان •

تبدأ القرية تتنفس •• وشيئا فشيئا تعود لبيوتها الحياة ••
تنفض بعض الأبواب •• ويسيل سرسوب من الميـاه يصطدم

بقـاع أحـد الطســـوت •• يتمتم شـيخ فـرغ لتوه من الوضوء يتأهب للصلاة •• وتسعل عجوز فى أحد الأركان ثم تتثاءب من فم تترمت أسنانه ••

تعود الشمس بوجهها الأصفر الشاحب تبحث عن مكانها فوق الأسطح وعلى مساحات الزرع الأخضر •• يعـلو موال قديم يحمله صوت عفى متفائل يشير بموافاة المحبوب بعد طول الصـد •

تزحف الهوام تتسلق الجسد الراقد بلا حراك •• تتقافز ذبابة فوق الوجه الساكن •• تطن بعض الزنابير فى الفضاء •• وتطوف فراشة حول أوراق النبات •• بينما يرتفع قرص الشمس وقد أخذ يسترد عافيته بعد ذلك الليل الطويل •

الانتظـار ..

فى صـمت

خفتت الضجة وهدأت الرجل ثم انقطعت فسقط سـكون يكرهه . الضجة فى أذنيه موسيقى .. لحن يعزفه الرزق .. والسكون كساد وبوار .. من وسط الضجة يأتيه الزبون . انتظر وانتظر حتى مل الانتظار . فقرر العودة . أطفأ المصباح وسحب الباب ومضى ملقيا تحية فاترة مجهدة على جيرانه .. المعلم سنديونى الجزار الذى أقعده المرض وهـدته الكيوف فاكتفى بالجلوس على باب جزراته يباشر العمـل بعين حذرة ، والمعلم طربوشـه الكوارعى السـمين بوجهـه المحتقن وعينيه الدامعتين من أثر ضحك مفرط وعم على الشربتلى العجوز بسطله الممتلىء أبدا .

ـ بدرى ؟

ـ تعبان شوية .. !

ـ ألف سلامة .. !

.. رفاق طفولة قصيرة العمر ، انتزع منها ليلقى فى هــذا البحر الطامى .. العمل .. التجارة .. المكسب والخسارة .. بيع وشراء .. كرة تدور ولا تتوقف ، يدور معها ، ويدور العمر عاما بعد عام .

حبك معطفه الكاكى على جسمه قاطعا شارع درب المحكمة الى شارع الصبان ، نفس الطريق ، يحفظــه ويستطيع السير فيه مغمض العينين ، رحلة سنوات طويلة من الركض وراء الرزق لا يذكر أنه توقف خلالها لينظر حوله .. ليلتقط أنفاســه .. ليفكر .. ليحس لها طعما أو يرى لونا . من طلعة الشمس يكون فى طريقه الى الدكان ويظــل فيه يلقط رزق بيته وعياله حتى ترتمى المدينة آخر الليل ميتة من التعب فيطفىء مصباحه ويسحب الباب . أحلى سنوات عمره قضاها فى هــذا الدكان حتى شاب شعر رأسه وضعف بصره والكرة ما زالت تدور . من شــارع الصبان دخل الى عطفة الدورة . فوق السطوح حيث يسكن ينتظرونه . يصعد السلم المظلم درجة درجة ، وقع قدميه الثقيلتين يبدد صمت الليل ، أنفه تشم رطوبة البيت .. ملح الحائط .. وصفائح القمامة الممتلئة ..

***

من باب الشــعرية الى جاردن سيتى يركب تروللى ٣٠ ، يجاهد فى الزحام ليحافظ على حذائه نظيفا لامعا . فى شــارع

القصر العينى ينزل ، يمسح نظارته الطبية الملونة (قال له الطبيب وهو يبتسم انها فوق محافظتهـا على عينيه تمكنه من رؤيـة الأشياء فى صورة أجمل) ، يستند الى الحائط وينحنى ثانيـا ركبته ليمسح حذاءه بخرقة يحملها فى جيبه ، ويكرر نفس العملية مع التقدم الثانية . يتجه يمينا فى شارع تحف به أشجار لا يعرف اسمها تطرح زهورا حمراء ، تلقى بها على الأسفلت الأسـود فى سخاء زائد . مدخل الهيئة مبنى من الرخام .. السلم مصقول يلمع .. المصعد .. المعاطف ورائحة العطور .. يتبادلون تحية كالقبلات ، رقيقة مهموسة ، يهز رأسـه ويبتسم .. يبتسم .. يهز رأسه ، الحديث يدور خافتا .. كل شىء لامع ، براق ونظيف يؤكد له يوما بعد يوم أن هنا عالمـا يختلف عن عطفة الدورة بضيقها وزحامها وزياطها الذى لا يكف .. الرائحة مختلفة .. الناس .. فلمس الأشياء .. كل شىء .. حتى الأسماء ..

***

عندما قالت له انه الى اليوم لم يقـل لها أين يقيم أحس بضربات قلبه تدق فى رأسه ، سد الطنين أذنيه واهتزت صورتهم أمامه ، سألها عن سبب سؤالها فقالت انهم قد يزورونه فى عيد ميلاده وضحكت فضحك الجميع بينما تشاغل هو بالحديث فى التليفون ، وعندما جاءه من يقول أن المدير يطلبه أسرع خارجا ، يده تجرى فوق شعره وتسوى ملابسه . عند الباب توقف ،

بلع ريقه ونقر نقرتين خفيفتين ثم انتظر ، بعدها بقليل أدار الاكرة ودخل ويده من خلف ظهره تغلق الباب محاذرا أن يحدث صوتا يفزع الصمت الراقد فى الحجرة . رسم على وجهه ابتسامة تلخص سعادة الوجوده ووقف ينتظر ...

***

قال انه سئم الكلام معها فى هذا الموضوع ، وأن طريقتها هذه لا تعجبه ، وأنه عندما يقرر الزواج سيختار لهذا الوقت الذى يراه هو مناسبا لا هى . بذل مجهودا كبيرا ليقنعها أن الزواج يحتاج سكنا مناسبا والسكن يحتاج مالا والعروس لابد لها من مهر وشبكة . قال انها يجب ألا تنسى أيضا تكاليف الفرح والهدايا وخلافه . طلبت منه أن يقدم المشيئة حتى تنحل العقدة . قال ان شاء الله ، فسألت : متى ؟ كلما حدثتك قلت ان شاء الله .. كلام بلا فعل . فعل .. فعل ! حاول أن يشرح لها كيف أن لكل فعل رد فعل . قالت الفعل أن يعزم ويتوكل على الله . قال انها بالحاحها هذا قد تدفعه الى رفض الفكرة بالمرة . قالت انها تريد أن ترى خلفته قبل أن تموت وأنها — بصراحة — تعبت من شغل البيت ، فقال ان زوجته لن تكون خادمة لأحد . دست يدها فى صدرها وأخرجت منديلها تمسح به عينيها وتتمخط . قالت انها لم تكن تنتظر أبدا بعد كل هذا العمر أن يكلمها بهذه القسوة . قبل رأسها وربت ظهرها فقالت انها

لن تفتح معه هذا الموضوع مرة ثانية ، وأن لها مع أبيه ـ حين يعود ـ كلاما آخر ..

***

على العشاء قال الأب ان ايراد الدكان اليوم أقل من أمس. سألت الأم عن الفرق . قال كذا ، فشهقت وخبطت صدرها بكفها . قال ان حال التجارة اليوم ليس كحالها زمان وأنها يجب أن تعلم هذا جيدا وترتب نفسها عليه . ردت بأنها تفعل ما فى وسعها لكن من حقها أيضا أن تعيش وأولادها مثل بقية الناس ، فذكرها بأن أصابعها تختلف أصبعا عن الآخر . سكتت وقامت تكمل اعداد العشاء .

حول « الطبلية » جلس الابن فى مواجهة الأب وجاءت الأم فجلست بينهما . على يسار الأب كان أصغر أبنائه يحبو مبتل السروال . رفعه اليه ، ضمه وقبله وأجلسه على ركبته .

قالت وهى تسمى لتأكل انها تريد أن تكلمه فى أمر مهم . خيرا .. قال من فم ممتلىء فقالت : كل خير .. ومضت تمضغ . سأله لماذا لا تأكل ؟ كل ، فأجاب بأنه يحس بالشبع ، وراح يقلب صفحات مجلة قديمة . قالت ان حال ابنها أصبح لا يرضيها ولا يرضى أحدا بتاتا ، وأن مسألة سهره كل ليلة أصبحت حديث الجيران ، وأن عليه هو أن يضع حدا لكل هذا . التفت اليها

فقالت ان ابنها يجب أن يتزوج ويعيش معهم ، وأنه لابد يوافقها على رأيها فهى لا تبحث الا عن المصلحة • مضى يتناول طعامه • قالت كلمه أنت ، فتوقف عن الأكل وأخرج من جيب معطفه الكاكى دفترا حائل اللون وقلما صغيرا • أغمض احدى عينيه وضيق الأخرى • قرب الدفتر من وجهه وراح يحسب • صرخت فيه : كلمه ! فأزاح الصحن من أمامه ووضع الدفتر • قال انه تزوج فى سن أصغر منه • أجابه بأن الزمن الآن مختلف وكذلك الظروف ، وأن المسألة ليست مسألة سن ، وأنه لا يرضى لنفسه أن يعيش بجلبابه ومعطفه الكاكى وطاقيته •• قال أنه •• فرد محمر الوجه وفمه يرتعش انه ضيع عمره يقطع الطريق من درب المحكمة الى شارع الصبان الى عطفة الدورة ذهابا وعودة مرتين فى كل يوم من أجلهم ، وأنه لو كان •• قال انه لم يكن يقصد أن يجرحه وانما قصد فقط •• فأشاح بوجهه عنه وكل جسـمه ينتفض • قالت انه يخشى أن تصبح زوجته خادمة لهم ، فالتفت اليه قائلا ان أمه كانت تقبل يد والده قبله هو ، وأنهم كانوا ينتظرون حتى يفرغ جده من طعامه ثم يأذن لهم ليأكلوا • حبا الصغير بسرواله المبتل نحو الباب وقعد على مؤخرته ضاما ساقيه النحيلتين وعيناه الواسعتان تنظران اليهم • قال ان الوقت ليس مناسبا للكلام وأن الأحسن ارجاؤه ليوم آخر لأنهم قد يتسببون بصراخهم هذا فى ايقاظ الجيران ، وأنه يجب أن يطلب منهـا السـكوت •

من المرحاض طفحت رائحة نتنة فانتتر واقفا وقال انه لم يعد يحتمل العيش معهم ، وأنه عموما مصر على رأيه فلا شيء يضطره لهذا ومرتبه يكفل له حياة مستقلة . نظر اليه وسكت . أضاف وسبابته تشير اليه ، بينما راح ينظر بطرف عينه الى صورته فى المرآة ، انه لابد أن يفهم أنه حر يفعل فى حياته ما يريد ، وأنه لم يعد قاصرا يتصرفون فيه كما يشاءون .

انفتحت نافذة فى الطابق العلوى وأخرى فى المنزل المجاور فسكت ، ولما لم يجد ما يضيفه اندفع خارجا صافقا الباب من خلفه ، فانفجر الصغير يبكى .

على السلم أطلت قطة من احدى صفائح القمامة ثم قفزت هاربة بينما كان هو يفكر فيما عساهم يقولون عنه الآن ..

عنـــدما

يمـــوت

على حجرها هذا كان يريح رأسه .. يحكى لها أخبـار الشغل ومشاكله ، وكانت تنتظر بفروغ صبر أن ينتهى لتحكى له هى عن متاعب البيت فلم تكن تجرؤ أن تقاطعه . هـكذا تعودت منذ خطبها .. كانت صغيرة جدا وقتها وكان هو يكبرها بسنوات كثيرة لم تكن تعرف بالضبط عددها .. أفندى من عيلة وموظف على درجـة ، وهى .. بنت صـغيرة .. فرحت كثيرا بالشبكة والجهـاز والفرح .. بالمدعوين وأضـواء الكلوبات ترسـم على الأرض فى سـواد الليل دوائر يلعب فيها صبيان الحـارة وبناتها .

•

تحت الكلوب تماما وقف معها سى مصطفى (هكذا كان المرحوم يناديه) ، مال عليها ودس فى يدها شيئا « دبرى نفسك لحد الاجراءات .. » ، أعطـاها ظهره وانصرف ، مدت خلفـه بصرها وهو يبتعد فى ظلام الحارة . عند الناصية توقف ، أسند يده الى الحائط ، نظر اليها ، هز رأسه وتابع سيره . فتحت كفها ،

نظرت من خــلال عينيها المحمرتين الى المبلغ (لا تعرف عدده) وبكت بحرقــة •

●

على الكنبة الاستانبولى كان يجلس بعد صــلاة العصر يشرب قهوته ، كان يطفىء سيجارته فيها ، وكانت تعاتبه كلما فعل ، لكنه كان يعدها فى كل مرة ألا يكررها •• ثم ينزل بعد أن يسألها ان كانت تحتاج من الخارج شيئا ••

●

بعد انصراف الجميع نظرت من النافذة الى الحــارة •• كان آخر الكلوبات ما زال مضــاء •• وكان عمــال الفراشــة يخلعون الأعمدة من الأرض ويفكون « الصيوان » لتحمله العربة الى المخزن • أغلقت النافذة فدخل ضوء الكلوب من فتحاتهــا ورسم على الحائط خطوطا متوازية ظلت فترة ثم اختفت فملأ الحجرة ــ فجأة ــ ظلام أعمى ••

●

سألها مرة ماذا تفعل عندما يموت •• استعاذت بالله •• قالت انها كانت تموت قبله • ابتسم ، وأكد لها أنه لن يموت وأنه لن يتركها ، لكنها فيما بعد أعادت السؤال على نفسها ،

ولما لم تستطع أن تتصور ما يمكن أن تفعله طردت الفكرة من رأسها وأسلمت الأمر لله ٠

●

كانت تعلم (فهى مؤمنة وموحدة بالله) أن أمرا كهذا لابد أن يحدث لكنها لم تكن تتصور أبدا كيف يمكن أن يحدث ٠٠ وها هو قد حدث ٠ فى الظهر أتى به بعض زملائه ٠٠ قالوا انه « تعبان شوية » وأنها « سليمة ان شاء الله » وعند العصر ازداد تعبه ٠ أرسلت تطلب له « الحكيم » لكنه عندما أتى وجـده قد مات ٠ قال لها « شدى حيلك » وانصرف ، وتولى عنها أولاد الحلال كل شيء ٠ لم تكن تتصـور أن يتم الأمر على هـذه الصورة ، لكنه قد حدث وانتهى ٠٠ وبدأ خوف كدبيب النمل يزحف عليها ٠٠

●

فى الليل قال لها انه يحس شيئا كالنمل يمشى فى جسده ٠ طمأنته ٠ فى الصباح ، بعد الفطور ، قال لها انه لن يتأخر لأنه يحس بنفسه تعبا وأنه قد يعود سريعا ، وأنه أيضـا يريدها أن تعد له كيت وكيت وذكرها بالاستعداد بعد ظهر اليوم للخروج مع الأولاد وأوصاها أن تخبر الصغير أن بذلته البحارى ستأتى،

والأوسط أن طلبه سيكون جاهزا ان شاء الله ، والكبرى أنه سيحضر لها كل ما تحتاج وأن كل ذلك سيتم اليوم ••

●

عندما سألوه عما به أجـاب : لا شيء ، ثم صمت •• بعد فترة أضاف أنه قد يستأذن قبل ميعاده فعنده اليوم مشوار مهم لابد من قضائه ، ورجاهم أن يقوموا بعمله ، ثم غرق فى الصمت مرة أخرى •• وبعد قليل كانوا يخرجون به الى منزله ••

●

قبل أن تأوى الى الفراش وقفت تنظر فى المرآة المعلقـة فوق « البوريه » •• كانت تبدو أكبر من سـنها وهى تلبس السواد • غمزت اللمبة نمرة خمسة عدة مرات ثم هبت وانطفأت ، وفى الظلام امتدت كفهـا تتحسس مكانه فى الفراش •• كان خاليا وباردا • سحبت الغطـاء على جسدها وتذكرت أنها لم تذق طعاما بعد الفطور •• كانت تعلم أنها ستقضى ليلتها مسهدة، لكنها عند الفجر سرقها النوم ••

●

فى الصباح خرجت الى السوق •• كان مزدحما وصاخبا ، وعند عودتها لم تنتبه لتلك الدرجـة المكسـورة من السـلم فتدحرجت ساقطة حتى بلغت نهايته ، وهناك تريثت تستجمع نفسها قليلا •• ثم قامت تحاول الصعود من جديد •

النــل ••

صحراء حيــاته يعبرها حافى القدمين تحت وقدة شـــمس كالنــار ••

على امتداد الأفق حوله بحر من الرمال الملتهبة ••

لا ظــل ••

لا أمل فى أى ظل ••

لن يعرف الراحة الا عندما تهبط شمس حياته •• تغرب •• تغيب ويحل الظلام فيهدأ كل شيء وتبرد من تحت قدميه الرمال •• ثم تتسلل البرودة الى كل مكان فيه •• يســكن جســده تماما •• يسقط •• ويسود الصمت ••

رفعت رأسها نحوه :

ـ ألن تنــام ؟ !

ـ حــالا ••

قالها دون أن يلتفت ••

أطفأ المصباح وانزلق الى جوارها ••

أدار وجهه نحوها •• تأملها لحظة ثم أشاح بوجهه بعيدا ••

أنكر فى نفسه أن تكون صاحبة هـذا الوجـه هى نفس الفتـاة التى عرفهـا منذ ثلاثين عاما •• صـورتها أمامه على الشيفونيرة ممتلئة حياة •• كانت جميلة •• نعم •• قال لنفسه •• لكن قطار العمر يدهم من يتسمر فوق شريطه •• ويفرمه ••

استدار يعطيها ظهره باحثا فوق الوسادة عن مساحة باردة يريح فوقها خده الملتهب ••

***

سأله لمـاذا اليوم بالذات كل هذا التحديق فى وجهه •• نعم أنا مازلت •• هو وجهى الذى تعرفه منذ أول مشـوارنا معا •• لم يتغير فيه شيء •• أضاف ضاحكا •• هـل يعجبك وجهى الى هذا الحد ؟

لم يرد ••

نهض باحثا عن مكان آخر بعيدا عن المرآة ••

أمسكه من ذراعه يسحبه الى الخارج ••

لم أعد أطيق الجلوس فى هذا المكان •• لمـاذا لا نجلس فى الخارج فى الهواء ••

تبعه مستسلما ••

نفس العينين الوادعتين انطفأ بريقهما وبقيت فيهما آثـار ابتسامة قديمة يعرفها لم تغب حتى الآن ..

لن يفهم ما أحس .. رغم ذلك يتـكلم .. يصغى اليـه صامتا ..

عندما تتوارى خلفـك كل مساحات الخضرة والظـل فى حياتك .. لن تجد أمامك سوى الصحراء المحرقة ..

لن تستطيع العودة .. فات الوقت .. أمامك الصحراء ولابد أن تقطعها .. عدوا .. أو سيرا .. أو زحفا .. لا يهم .. ستصعد التل .. لترى مـاذا يخفى وراءه .. لن تجد خلفـه الا وادى الجماجم والهياكل العظمية .. ستسقط اعياء ورعبا .. جسدا ساكنا بلا حياة .. لتصبح واحدا منها .. وينتهى كل شىء ..

مد أصابعه يتحسس جبهته .. أنت مريض ولا شـك ..

هـذه هى الحمى ..

قم معى .. لابد أن تعود الى فراشك لتستريح ..

نهض معه .. لن يفهم .. مشى الى جواره مستسلما ..

ما جدوى أن يحكى له ..

مد يده يصافحه مودعا ..

***

الشـــتاء والصيف .. آه لو يجتمعان معا .. اذن نصنعا باجتماعهما معا ربيعا مدهشا .. أجمل فصول السنة ..

تأمل ظهرها قبل أن تغيب وراء الباب ..

استوقفها يسألها عن عمرها .

أراد أن يبدو السـؤال عارضـا لا يكشف شـيئا من أفـكاره ..

فاجأها السؤال ..

لم تتوقع منه سؤالا كهذا ..

سنوات عملها معه قضتها لا تسمع منه الا كلاما خاصـا بالعمـــل ..

كثيرا ما سألت نفسها ان كانت له حياة بعيدا عن مكتبه ..

سألته لمـاذا يسأل ..

نهض مرتبكا ..

أحس بتورطه في السؤال .

خرج اليها من وراء المكتب معتذرا عن سؤاله ..

قال انه مجرد سؤال .. أضاف بعد تردد .. ان له ابنة أخ في مثل سنها وكان فقط يريد ..

لم يستطع الاستمرار .

مد يده يستند الى أى شيء الى جواره ..

ساوره احساس بأنه سيسقط فى أى لحظة ..

ابتسمت .. واستدارت خارجه ..

استعاد فى ذهنه مرات كل حرف نطقت ..

سأل نفسه ان كانت أدركت شيئا من سؤاله ..

حار فى تفسير معنى ابتسامتها ..

قال فى نفسه انه لم يكن ينبغى أن يسألها سؤالا كهذا .. وقرر أن يترك التفكير فى الأمر نهائيا ..

***

بقعة الظل والخضرة الوحيدة التى ظهرت له هل يتركها ..

كيف ؟

سأل نفسه .. كيف يمضى مشواره المهلك ويتجاهلها ..

ها هو البستان يفتح له أبوابه يدعوه للدخـول لينهل من مائه البارد •• يحتمى بظله ويطفىء النار داخله ••

لم يعد يشغله التفكير فى معنى ابتسامتها ••

تكررت الابتسامة فى اليوم التالى ••

ألحت الى سؤال الأمس ••

ضحكت ••

ضحك ••

مازالت فى العمر بقية •• وفى الجسم قوة ••

هو يدرك هذا تماما •• قلبه يحس به شابا ما يزال ينبض داخل صدره •• قفزت من فوقه وتخطته سنوات العمر ولم تطأه بأقدامهـا ••

أزهرت داخله مساحات من الخضرة ••

تأمـل بعينين جديدتين كل لفتة وحركة وسـكنة لها •• حركاتها الرشـيقة •• زاوية فمهـا ناحيتـه •• شفتاها عندما تضحكان •• عندما تعبس بشقاوة يحبها ••

خفف كثيرا من كلامه فى العمل معها •• ثم لم يعد يكلمها فيه بالمرة ••

تكلما عن كل شيء ..

حكت له عن بيتهـا .. عن ماما وبابا .. صـديقاتها .. زميلاتها فى العمـل .. عن قريبها لوالدها الذى جـاء يخطبها وأسباب رفضها له .. عن صديق لها تعرفت عليه فى احـدى الحفـلات ..

سألته ماذا تفعل لتجعله يتقدم لخطبتها ..

آلمـه سؤالها ..

سألها أن تفاتحه مباشرة .. فاذا كان جادا فلن يتردد ..

تمنى فى قلبه ألا يكون جادا ..

ترددت كثيرا فى مفاتحتها بما يحسه هو نحوها ..

مازالت تعامله كعمها مثلا ..

ألقت اليه بهذه الحقيقة ذات صباح خـلال حديث قصير بينهما ..

قالت انها تعتبره بالفعل كعمها تماما وترتاح له ..

أضافت أنها تثق كثيرا فى صدقه واخلاصه .

أحس بنفسه ضيفا فى بستانها .. وأن عليه أن يغادره بنفسه قبل أن يطرد منه ..

لست اذن صاحب البستان كما صــورت لك أوهامــك ولا حق لك فى أن تمتد يدك الى فاكهته ..

تمنى لو كانت عنده الجرأة .. اذن لقطف أشهى ثمــار البستان .. لانحنى يشم زهوره .. لتمرغ فوق عشبه يغســل وجهه بقطرات الندى .. لانطلق يجوس خــلال أشــجاره .. يتسلق روابيه .. يترك جسده المتعب ينزلق فوقها ساقطا الى السفح .. يعانق كل شبر فيه ..

أفاق الى صوتها تستأذنه فى الانصراف ..

هو نفسه لا يدرى كيف حدث هذا ..

فى لحظة كانت بين ذراعيه .. فى عينيها نظرة رعب جمدتها المفاجــأة ..

انقضت لحظات أحست بها دهرا طويلا ..

لابد أنه كابوس ..

قالت لنفسها انهالابد تحلم ..

دفعته بعيدا عنها ..

وقف أمامهــا مفتوح الفم .. ذراعــاه ممدودتان أمامــه تنتظران عودتها ..

تقدم نحوها ..

تراجعت الى الخلف خطوة ثم توقفت تواجهه ..

صرخت فيه ..

تنبه الى أنهما مازالا فى المكتب ..

تصور كل الموظفين خلف الباب يستمعون الى صراخها ..

قفز الى الخلف متراجعا عنها ..

رفعت أصبعها فى وجهه محذرة ..

قالت وفمها يقطر سما « ألا تنظر الى وجهك فى المرآة » ..

تذكر صديقه ..

عينــاه الدامعتان أبدا .. ابتسامته المستسلمة تسخر منه الآن ..

صفقت الباب خلفها بشدة ..

ارتطمت عيناه بالباب .

مد أصابعه يمسح وجهه ..

أحس سخونة الرمال تحت قدميه ..

ببطء راح يصعد التل ..

فوق قمته تماما توقف ..

يخاف أن ينظر الى أسفل ..

دفن وجهه بين كفيه وأجهش بالبكاء .. بينما راح جسده يهوى متدحرجا الى أسفل حتى استقر فى قاع الوادى .

***

لم يحـدث شيء !

مضيت معها أهبط الطريق المفضى الى الميدان .. أمـام شريط الترام توقفنا .. انحنت تلتقط كفى فى يدها .. تلفتت حولها فى صبر مستسلم .. جذبتنى من ذراعى فأسرعنـا نعبر الشريط ركعنا نتفادى السـيارات المسرعة تهدر حولنا من كل اتجـاه ..

بحذاء السـور الحجرى العالى الذى راح طلاؤه يتساقط من بعض أجزائه سرنا وشمس الصباح تتحسس آثار اللافتات والاسماء والألوان فوق الحـائط وتمتد لتدخل كل شق فيه .. تمنيت فى تلك اللحظـة لو أننى أقف فى مواجهة الشمس .. ظهرى للنور وأغمض عينى أمامها أستشعر دفئها وأحلم .. وأرى خلف جفنى ألوان الطيف تدور .. تتشـابك بك وتتقاطع فى نعومة لا تتوقف ..

عند نهاية السور انحرفنا يسارا فانكشفت أمامنا الجبانات وأحواش المدافن ومن خلفها يربض الجبـل ساكنا أغبر اللون كئيبـا ..

سرت معها ساكنا بين بعض بيوت المنطقة القديمـة حتى توقفت أمام أحـد الأبواب فتوقفت .. تركت كفى فأحسست

بالارتياح من ضغط أصابعها حول أصابعى وملمس العرق فى راحة يدها •• دست يدها فى صدرها بينما رحت أنا أدور حولها وأقفز فوق ساق واحدة ••

أخرجت من صدرها عملة فضية قلبتها على وجهيها أمام عينيها •• رفعتها أمامها تشير بها نحو قرص الشمس :

ــ اذا مالت الشمس وغطى ظل الجامع الشارع تعود •• فهمت ؟

هززت رأسى موافقا ••

مدت يدها بقطعة العمــلة نحوى فأسرعت ألتقطها منهــا وانطلقت أعدو ••

عند بداية السور توقفت •• استدرت أنظر اليها قبل أن يبتلعنى الشــارع •• كانت تقف مستندة بظهرهــا الى الباب الباب الخشبى بينما راحت عيناها تتابعانى ••

درت مع السور فاستدارت تنقر بأصابعها الطويلة خشب البــاب ••

قبل أن تميل الشمس كنت أجلس أمام البيت القديم فوق أحد الجدران المتهدمة أقذف قطعة العملة فى عين الشمس الغاربة وألتقطها متابعا فى اهتمام ارتفاع وسقوط ذلك القرص المعدنى

اللامع أمام الضوء الأصفر الضارب الى الأحمرار عندما انفلت فى احدى المرات من بين أصابعى مرتطما بالحجر ..

حددت أذنى مكان السقوط .. انحنيت أفتش بين شقوق الحجر عن القطعة الفضية ..

كانت عيناى ما تزالان تبربشان من أثر ضـوء الشمس لكننى لم أيأس ورحت أتحسس الأرض بأصابعى أتلمس التراب والحصى حتى ضقت فى النهاية باللعبة كلها فنهضت ساخطا أركل الحجر بقدمى وأبصق عليه قبل أن أجلس فوقـه واضعا رأسى بين كفى بينما عيناى لا تفارق نافذة البيت منتظرا أن أراها فى كل لحظـة ..

كان قرص الشمس قد اختفى خلف البيوت وانتشر الظلام فأضاءت النافذة .. توقعت أن أراها لكنها لم تظهر .. هبت نسمة من الهواء البارد فاهتز كل جسمى .. لكننى لم أتحرك من مكانى ..

أضيئت مصـابيح الشـارع البعيد بعد فترة فأحسست بالخوف يدب داخلى وبرغبة فى البكاء شعرت معها أننى أكرهها وأتمنى أن تموت لو أنها عادت لتركى وحيدا مرة أخرى .. ورحت فى خيالى أتصور عفاريت الجبانات تمرح بين المقابر على

صورة أرانب بيضـــاء تلعب فى ضوء القمر وتقفز معها ظلالها الصغيرة فأزداد انكماشا لأكتشف أننى أبكى منذ فترة ••

كان باب البيت قد انفتح فى تلك اللحظــة ولمحت شبحها من فتحة الباب وراءها خيال لرجل يودعها فتخرج وتغلق الباب خلفهـــا ••

أسرعت أقفز من فوق الجدار راكضا نحوها ملقيا ذراعاى حول خاصرتها متمسكا بها ••

مدت يدها ترفع وجهى نحوها ••
رفعت ذراعاى اليها فانحنت تحملنى ••

أخرجت منديلها تمسح دموعى وتضمنى الى صدرها ••
لاحظت جرحا جديدا فى رقبتها فملت بجسمى أنظر فى عينيها ••

التفت مشـــيرا بذراعى الى البيت ونحن نبتعد •• سألتها ان كان هنـــاك من يؤذيها فيه لأعود اليه وأضربه ••

جاهدت لأتخلص من حضـــنها وأنطلق فازدادت تمســـكا بى ••

هزت رأسها بالنفى وهى تضحك من خلال دموعها التى بدأت تلمع فى عينيها بينما راحت تضغطنى فى صـــدرها بشدة وهى تردد :

ــ لم يحدث شىء •• لم يحدث شىء !!

الثـالث

المدينة من هنا يراها تحت قدميه •• صغيرة البيوت •• تمتد حدودها حتى الأفق •• من ورائهـا الجبـل •• تتشابك بيوتها ويلتصق كل شيء فيها •• أشجارها تبدو له صفا واحدا كتلك الرســوم التى كان يراها فى مجـلات الأطفال •• تهبط الشمس وراء الجبل تسحب خلفها آخر خيوط الضوء الأصفر •• تجتاح الظلمة تفاصيل المدينة •• تضىء خلف زجـاج نوافذها المصابيح ••

تذكر آخر مرة كانت فيها معه •• فى نفس هذا المكان •• قال لها انه مثل الآخرين يريد أن تكون له فى هذه المدينة نافذة ينتظره خلفها انسان •• قد لا يرى نافذته من مكانه هنا لكنه يشعر أنها هنـاك •• يكفيه الاحساس أن له نافذة فى المدينـة يضىء خلفها مصباح •• يتحرك وراء زجاجهـا انسان يعرفه •• يفكر فيه وينتظره •• يفتح له الباب اذا سمع دقته عليه ••

فى عينيها يقرأ سطور أيامه المقبلة •• تتفتح أمامه بوابات المستقبل •• يحتار •• أيها يختار ليدخل منها •• ترشـده نظرة عينيها يسير الى حيث أشارت •• على صدرها يحكى أحلامه ••

يودع ظلال الأمس ، يدير ظهره للخوف •• يتطلع فى ثبـات الى يوم جميل ••

الخطوط فى كفها البيضاء الدقيقة كثيرة ومتشعبة •• سار بأصبعه فوق واحد منها •• ضاحكة ضمت أصابعها بسرعة •• سألته ماذا رأى فى كفها • رفع اليها وجها مبتسما •• قال انه يراها خلف زجاج النافذة التى يحكى لها عنها أطرقت •• رفع وجهها اليه •• أضاف انه يجوب شوارع المدينة كل يوم •• يضرب فيها على غير هدى ـ يفتش فى بيوتها عن نافذة تكون له •• لا يعرف أسـماء الشوارع •• لا تهمه الأسـماء •• تضيق الشوارع أمامه أو تتسع •• تشـعر بالحركة أو يلفها الموت •• تواجه بيوتها العراء أو تتوارى خلف ظلام الأشجار •• لا يعنيه الا أن تقع عيناه على نافذة يعرفهـا •• يحس خلفهـا بالأمان •• وتنقطع المطاردة •

أريد وجههـا •• قالت تذكره انهما اتفقا على ألا يعودا للكلام فى هذا الموضوع مرة ثانية •• هز رأسه موافقا •• هدأت ملامحها •• قالت : أنت تتخيل أشياء لا وجود لها •• الحقيقة الوحيدة هى أننى معك •• الى جوارك •• قاطعها : الآن ؟ •• قالت نعم •• الآن •• وأى فرق ؟ ••

نظرا الى المدينة على البعد •• تأمل أضواءها •• الطريق

الصاعد الى الجبل يمر من خلفهما .. أضيئت مصابيحه القليلة فتناثرت بقع من الضــوء الخافت فوق سواد الأسفلت .. التفت اليها .. قال انه رآه بالأمس .. وجده أمامه .. ظنه هى .. ضحك .. لكنه ما ان فتح لها الباب حتى انقض عليــه هو .. أسقطه على الأرض وراح يجرى فى الشقة مقهقها فى انتصــار صاخب .. قالت انه فى هــذه الحالة يجب أن يستشــير طبيبا مختصا .. صرخ فى وجهها بأنه ليس مجنونا وأنه يعى تماما كل كلمة يقولها .. سألها مستنكرا لمــاذا لا تصــدقه .. هه .. ولمــاذا تنفى كل ما تسمعه عنه .. لمــاذا تدافع عنه كلما جاء ذكره فى كلامه .. أجابت وهى تهم بالنهوض بأن أوهامه تزرع الأرض تحته بالشــوك وأنه لو أصر على اعتقاده فان عليه أن يختار واستدارت مبتعدة عنه .. سار خلفها حتى بلغا أول الطريق النازل الى المدينة .. وقف أمامها يتأمل وجهها الساكن .. يحب شعرها عندما يطرحه الهواء خلف رأســها .. أناملها الدقيقة تحاول دون جدوى الامساك بخصلاتها المتطايرة .. يطن الهواء فى أذنيه .. يصفر حول سيارته .. لا يسمع صوتها .. يبتسم لها .. يلفهما ظلام الطريق .. قال لها انه يحس بالظلام قد وضع يده على كل مساحات النور فى حياته .. لم يترك له مكانا مضيئا يتنفس فيه .. بحرارة راح يشرح لها كيف أنه أصبح يراه حوله فى كل مكان .. عندما أدار المفتاح فى باب شقته سمع تنفسه خلف الباب .. بهدوء سحب الباب وانطلق يعدو الى الطريق ..

لم يقو على الالتفات خلفه خشية أن يراه •• كان يحس بخطواته خلفه تطارده •• سمعها •• أحس وقع صداها فى أذنيه •• عندما عاد للشقة فى الصباح كانت فى حالة من الفوضى الشديدة •• لاشك أنه قلب كل ركن فيها يفتش عن شىء يريده •• لا يدرى ما هو •• دار فى الشقة يبحث فى كل ركن فيها عن أى أثر له •• الخبيث لم يترك أثرا واحدا يدل عليه •• يريد أن يوصله الى الجنون •• أنفاسه أصبح يحس بها حوله تلفح وجهه ولا يراه •• عندما هم بالنوم رأى وجهه الكئيب خلفه فى المرآة •• صرخ مذعورا فاختفى •• قالت انه يجب ألا يستسلم لأوهامه وأنه لابد له من استشارة طبيب •• قال لها انه يدرك تماما انه لن يكف عن مطاردته الا اذا تركها له •• أضاف بصوت يقترب من البكاء انه لا يقوى على تركها •• ولا يقوى فى الوقت نفسه على احتماله أوموا جهته وأنها يجب أن تساعده ضده •• سألت : كيف ؟ قال انه يريد أن يعرف أين يجده •• ليفرغ فيه مسدسه ثم يرتمى يلتقط أنفاسه بعد أن يتخلص منه الى الأبد •• لتكون له وحده •• ضحكت فى دهشة مستنكرة الفكرة •• أحس من ضحكتها أنها تخفى شيئا عنه وأنها لابد تعرف أين هو •• أمسك بها يهزها فى عنف ليرغمها على الكلام •• تخلصت من يديه وانفلتت تجرى هاربة •• غاصت فى الظلام •• صوت خطواتها الهاربة يبتعد •• أخرج مسدسه يصوبه نحو الظلام •• يتسمع وقع خطواتها •• لم يستطع تحديد مصدرها •• أرجأ

كل شيء لوقت آخر •• أخفى المسدس •• وانطلق يعدو خلفها ••

***

كانت نافذتها مضاءة عند وصوله •• راقب الشارع قبل أن يعبره الى المنزل •• بحذر شديد راح يصعد درجات السلم •• وضع أصبعه على الجرس ووقف ينتظر •• جاء صوتها من الداخل خائفا مترددا يسأل •• خرج صوته هادئا يطمئنها •• فتحت ببطء شراعة الباب •• حملقت مذعورة فى وجهه •• ابتسم لها مشجعا •• قال انه لابد أن يناقشها فى كل شيء ليضع حدا لهذه المهزلة •• فتحت الباب وما زال الخوف يلون ملامحها •• أزاحها من الطريق برفق وخطا داخلا •• قال لها انه لابد من تسوية هذا الأمر الليلة •• الآن •• لأنهما لن يعرفا طعما للسعادة وهو ثالثهما •• ارتعش صوته بينما هو يشرح لها حاجته اليها •• أحس برغبة ملحة فى البكاء أمامها •• تمنى لو أنها ضمته اليها ليريح رأسه المتعب على صدرها •• للحظة •• خيل اليه أنه لمحه يعبر من غرفة الى أخرى •• قفز بعيدا عنها •• أشار اليه •• قال انه رآه •• أكد لها انه يختفى عندها وأن هذا آخر ما كان يتوقع •• تساءل كيف فاته آلا يبحث عنه هنا •• هزت رأسها بشدة •• أشارت بيديها تؤكد له انه لا يرى شيئا •• صاحت فى وجهه انه لا أحد بالشقة •• أزاحها من

طريقه بشدة ارتطم ظهرها بالحـائط فوقفت ملتصقه به وقد اتسعت عيناها رعبا •• آخرج مسدسه وانطلق فى الشقة يفتش عنه •• هجمت تتشبث به من الخلف تمنعه من الدخـول •• هددت بأنها ستصرخ لو أنه تقدم خطوة واحدة داخل الشقة •• تحول الشك داخله يقينا بأنها تخفيه عندها قـال وهو يضغط بأصابعه فوق رقبتهـا بأنه سيقتله ويقتلها •• ارتطم فى نفس اللحظة باب الغرفة الداخلية •• أطلق الرصـاص على مصدر الصوت •• انفتحت الأبواب تبحث عن مصـدر الطلقات •• ازاحت يده من فوق رقبتهـا •• وقفت آمامه تواجهـه عيناها ممتلئتان بالتحدى •• قالت ان من يبحث عنه لا يوجد الا هنا وأشارت الى رأسه •• ارتفعت أصـوات السكان خلف باب الشقة •• صرخت فى وجهه بأنها لا تريد آن تراه بعد اليوم وأنه يكفيها منه ما حدث ••

قال لنفسه مقتنعا أنه ما دام قد عثر عليـه فلابد من أن يضع نهايته بيده ••

رفع مسدسه الى حيث أشـارت والاحساس بالانتصـار يملؤه ••

ارتفع حاجبها فزعا ••

ضيق عينه حتى لا يخطئه ••

وببطء شديد التف أصبعه حول الزناد يسحبه ••

حملت أوراقى وأسرعت أقطـع المســافة من غرفتى الى الاجتماع .. « اليوم يسقط مشروع الادارة » ..

كنت قد اتفقت مع عدد من أعضــاء المجلس على رفض مشروع الادارة وتقديم مشروعنا بدلا منه مستغلين حماس شباب المهندسين فى المؤسسة لرفض تسلط الادارة على الفنيين .. توقع الجميع أن يكون اللقاء حاسما وسرت فى جميع أقسام الادارة والمصانع والفروع تكهنات تترقب نتيجة الاجتماع .. وقــال البعض ان نجاحنا سيكون ضربة قاصــمة قد تؤدى الى تغيير المجلس بأكمله . كذلك لم يفقد رجال الادارة الأمل فى قدرتهم على كسب هذه الجولة أيضا .

درت مع الممر المفضى فى نهايته الى قاعة الاجتمــاع .. كانت كل العيون التى التقيت بها فى طريقى تلمع ببريق التحفز .. ربما يكون تحفزا من أجلى أو تحفزا ضدى انتظارا لمــا يسفر عنه الاجتماع .

كدت أصطدم بها وهى تستدبر تتلفت حــولها .. لمحت طرفا من وجهها وأسرعت أتجاوزها .. أبطأت خطوى .. شىء داخلى قال انها هى .. توقفت .. اســتدرت ألقى عليها نظرة

أتأكد فيها من ظني أو أنفيه . سرى داخلي تيار غامض من الخوف من المفاجأة .. عندما رفعت عيني اليها كانت في مواجهتي تماما وأربكتني نظرات عينيها المسددة نحوي .. تشاغلت لحظات بالتفتيش داخل جيوبي عن أي شيء .. تاركا لها فرصة اتخاذ رد الفعل .. كانت تقف في بداية الممر ظهرها الى الضوء في حين امتد ظلها أمامها حتى كاد يلامسني .. لم أستطع تبين ملامحها بشكل قاطع لكن وجهي الذي سقط عليه الضوء كان واضحا أمامها بكل تأكيد .. اقترب الظل مني حتى سقط على يغطيني .. فكرت لحظة في الهرب .. حاولت استئناف سيري لكن صوتها كان أسرع من محاولتي ..

حمدي ! !

متسائلا .. مندهشا .. ملهوفا .. نفس الصوت القديم ما زلت أذكره يسألني . ان كنت أنا .. أنا ..

سقطت في هوة سحيقة من ذكريات الماضي أطبقت تحوطني .. توقف الزمن عن التقدم فوقفت حائرا عاجزا عن الكلام .. طاف بذاكرتي دفء شفتيها وحرارة أنفاسها في أذني وملمس أناملها فوق شفتي تمنعني من الكلام ..

ها هي تقف أمامي الآن امرأة ناضجة في منتصف الحلقة الرابعة من عمرها تمد يدها بالمصافحة .. نفس الأنامل مفرودة

تنتظر منى الجــواب .. مددت نحوها كفا مترددة ورســمت ابتسامة وضعت فيها كل ما استطعت جمعه من الدهشة لوجودها هنا .. حاولت بعينى أن أؤكد المعنى فرفعت حاجبى متسائلا عن مقدار ما مر من السنين قبل أن نلتقى اليوم ..

تنهدت .. رفعت شعرها بأصابعها ومالت نحوى فانكشف جزء من وجهها أمام النور .. بصمات الزمن على شعرها ووجهها بدت واضحة لعينى .. لكننى رغم ذلك قلت انها ما تزال كيوم رأيتها آخر مرة .. ضحكت قائلة اننى ولاشك أبالغ لأنهــا لم تعد تلك الفتاة التى كنت أعرفها واننى أيضا لم أعد ذلك الفتى الخجول طالب الجامعة .

على باب قاعة الاجتماع وقف أحد الزملاء يشــير مناديا ينبهنى الى اقتراب موعــد بدء الاجتمــاع .. هززت رأسى . حالا .. قالت مبتسمة : يبدو أنك مشغول جدا .. وأضافت : لابد أنك تشغل هنا منصبا كبيرا .. هززت رأسى مبتسما .. تمنيت لو أننى استطعت الوقوف معها فترة أطول .. سألتنى فجأة ان كنت تزوجت .. كان واضحا من صــوتها أنها بذلت جهدا كبيرا لتسأل .. ترددت .. قلت بعد فترة اننى بعد أن عدت

من الخــارج بحثت عنها .. لم أجد أحدا فى المدينة القديمــة يعرفهم أو يستطيع أن يرشدنى اليهم .

قالت فى أسى واضح كأنما تحدث نفسها : نفس القصة القديمة تتكرر ..

تجمعت الدموع فى عينى من شدة تأثرى بصدق ما أقول .. بدا التأثر على ملامحها .. قالت فى حنان .. حمدى .. أنت تبكى ..

اجتاحنى طوفان حنانها .. حملنى فوقه .. انزلقت الدمعة ساخنة فأسرعت تمسحها .. توقف على البعد بعض الموظفين يرقبون المشهد .. قالت انهم بعد أن غادروا المدينة زمن الحرب أقاموا فترة فى القاهرة عند قريبة لهم ثم اتجهوا جميعا الى الاسكندرية وهناك افترقت عنهم لتعمل فى احدى الشركات بالوجه البحرى .

كان صوتها ينساب هادئا دون أن أتبين ما تقول .. لم يكن يعنينى سوى أنها معى هنا وأننا يجب ألا نفترق أبدا .. تنبهت فجأة الى كفها تهزنى .. قالت انها يحسن أن تنصرف الآن لأن زوجها والأولاد ينتظرونها فى السيارة أمام المبنى .. فكرت فى سؤالها عن سبب زيارتها للمؤسسة .. خمنت أنها ربما كانت تزور صديقة لها وأقنعت نفسى بأن السؤال لا معنى له ..

سرت معها خطوات أوصلها الى المصعد •• فضغطت على الزر ووقفت تنتظر •• مددت كفى أصافحها قبل أن تغيب داخل المصعد والرغبة فى البكاء تلح على فاستدرت عائدا بسرعة بينما راح المصعد يهبط بها فى اصرار ••

كان زميلى ما يزال أمام باب القاعة ينتظرنى •• مد ذراعه يدخلنى مغلقا خلفى الباب •• اتجهت من فورى الى مقعدى وبحركة آلية فتحت أوراقى وجلست أنظر فيها ولا أرى ••

طن من حولى كلامهم متثاقــلا من ركن الى ركن حــول المنضــدة •• تنبهت على لكزة زميلى الى جــوارى •• رفعت وجهى اليهم •• جاءنى صــوت رئيس المجلس متســائلا فى ود وبشاشة عن رأيى •

تعلقت أبصــارهم بى تنتظر فتح النار •• أطرقت برأسى لحظة •• رفعتها ثم قلت :

ــ أعتقد اننا يجب أن نتمسك بكل قيمة غالية فى حياتنــا وألا ندعها تفلت من بين أصابعنا حتى لا تضيع أعمارنا هدرا ثم نكتشف فجأة أننا لم نحقق حلما واحــدا من أحلامنا وأن يد الحياة قد سرقت منا أعمارنا ••

ــ كان صــوتى غريبا حتى على أذنى •• بدت الدهشــة

واضحة على وجوه كل الأعضاء •• هتف رئيس المجلس •• يعنى انت موافق على مشروع الادارة •• مبروك •

نهضت أجمع أوراقى فى صمت •• حملتها •• أزحت المقعد من خلفى وخرجت مغادرا القاعة •

•• والمبنى

•• والمدينة •• !!

مستطيل الضوء الشاحب تحت النافذة

دخلت الشمس من الشبابيك • حطت على الأسطح ثم زحفت لتهبط سائلة على الحيطان وتسقط بنورها داخل الشقق والبيوت • انطفأت العتمة داخل حجرته وسطع ضوء النهار ، تقلب فى الفراش • لابد أن يصحو • حسن • سيصحو ، لكن بعد بضع دقائق أخرى • راحت أصابعه تبحث عن الغطاء • لم تجده • سكنت الى جواره • خبط الوسادة بكفه فى ضجر • زفر ثم اعتدل جالسا وراح يحملق حوله بلا تركيز • الآن بدأ يعود اليه وعيه • الساعة • سيبحث عن الساعة ليرى هل مازالت هناك بقية من الوقت يتأهب فيها قبل أن ينزل الى عمله • سيفطر فى الشارع • ليست حكاية ، فهكذا روتين كل يوم • تعود عليه • يفعله دون تفكير • كالمنوم • وما حاجته الى التفكير • عمله حتى يؤديه بلا تفكير • يتطلع الى وجوه زملائه • أحيانا يعبسون • يرتفع صوتهم • قد يهمسون أو يبتسمون أو حتى يقهقهون ويخبطون على المكاتب بقبضاتهم • يراهن أنه لو وضع قطنا فى أذنيه فسيعرف بالتأكيد موضوعات أحاديثهم • يستطيع ترديدها بنفس ألفاظهم كم عاما مضت عليه معهم ؟ حاول أن يتذكر • الدهليز الطويل كالنفق المظلم المؤدى الى الحجرة التى وضعوا فيها مكتبه يمر على حجرة رئيس المكتب • قرر ألا يقرأ

اللافتة النحاسية المعلقة على الباب . كم مرة فى اليوم اتخذ هذا القرار ولم ينفذه .. كم يوما فى الشهر .. فى السنة .. فى مجموع السنوات التى أمضاها فى المكتب يقرأ نفس اللافتة . يقرر أن يتجاهلها ولا يستطيع .. مكتبه فى أقصى الحجرة الى جوار النافذة الخشبية العريضة المشرفة على فناء الديوان . حاول فتح النافذة على آخرها . لم يستطيع . أعاد ضلفة النافذة كما كانت ليتيح لنفسه مجالا أوسع للحركة . ضحك فى سره . الحركة ؟ ! . أى حركة ولا يفعل الا الجلوس والنظر فى وجوه زملائه فى الحجرة . تشاغل بفتح درج المكتب . راحت أصابعه تعبث بالاقلام . التقط السيجارة المتبقية من نهار الأمس . بحث فى جيوبه عن الكبريت . قام من مكانه الى المكتب المواجه . على حافته جلس وطلب كبريتا . انحنى يشعل سيجارته . شكر زميله بهزة من رأسه وعاد الى مكانه .. لا يذكر ماذا قال بالتحديد . لم تعد للكلام أهمية . أى فرق مثلا بين أن يسأل : هل معك كبريت ؟ أو هل أجد عندك عود كبريت ؟ أو أن يطلب مباشرة : اشعل لى سيجارتى ، أو ناولنى كبريتك أو حتى مجرد أن يشير له الى السيجارة ليفهم أنه يريد اشعالها . ما الفرق مادامت النتيجة واحدة ؟ اختيار الألفاظ ليس مهما هنا ــ يعتقد ــ لكنه قد يكون مهما وحاسما وأكثر تحديدا فى مواقف أخرى .. مثل .. مثل .. لا يهم الآن مثل ماذا .. لكن لابد أن الدقة والتحديد ضروريان فى مواضع أخرى لها كلام

آخر .. نظر الى ساعته . مازال النهار يمر بطيئا . فكر . بالأمس كانوا يتكلمون عن المروحة التى وافقت الادارة على وضعها بالمكتب . أكيد سيحاول كل منهم اختيار مكانها أقرب اليه . هو . لن يسأل . سيتركهم يختارون ما يشاءون . لن يكون غبيا فيشترك معهم فى جدل عقيم ترتفع أصواتهم كالأطفال حتى يخرج اليهم رئيس المكتب غاضبا لينهرهم .. سيخرسون على الفور .. الجبناء . سيتشفى فيهم .. هو .. سيظل مكانه فاردا ساقيه تحت المكتب . لن يراهما رئيس المكتب . واضعا ذراعيه فوق المكتب صامتا . سيندهش لسكوته . لن يرد عليه حتى لو كلمه . ربما أجاب على قدر السؤال . ليس مثلهم . سنرى . لا يضايقه شىء فى الدنيا قدر خجله من استقبال أى زائر فى مكتبه .. العثور على مقعد واحد سليم مشكلة .. ثم .. أين يضع المقعد والحجرة تكاد لا تكفى من فيها .. كم مرة يطلب من صبى البوفيه شايا أو قهوة للزائر ولا تجىء . يدفع حسابه نعم . آه . ربما البقشيش . الأهم هو أن رئيس المكتب لا يختار وقتا لسؤاله عن العمل أو لتكليفه بأى المهام الا هذا الوقت .. يزداد حرجه .. كيف يرد عليه .. يكتفى بهز رأسه بالموافقة .. يرتفع صوت رئيس المكتب : نعم ؟ كفه خلف أذنه . يضطر لرفع صوته مجيبا : حاضر .. حالا .. ليقفل باب الكلام فى الموضوع .

حكى لها مرة عن كل هذا . بعضه ربما . لا يتذكر .

وافقت على رأيه . أضافت أن هـذا ليس جوهر الموضوع فكل هـذا لا يهم . المهم ـ قالت . هو نحن . ضمن أنها تعنى أنا وأنت . لا يجب الاقتراب من هذا الموضوع ولا تكف هى عن افتعال أى مناسبة للدخول فيه . لا يدرى أين كان يختبىء كل هذا الغضب عندما صرخ فى وجهها محذرا من العودة لمثل هذا الكلام . بان الذعر على ملامحهـا . توقفت . فمهـا نصف مفتوح . تتجمع فى عينيها دموع كثيرة . لا يقوى على الاستمرار فى النظر الى عينيها . أطرق برأسه لحظـة ثم أشاح بوجهـه بعيدا . استأنف الناس سيرهم بعد لحظـة تردد . سحبها من ذراعها دون أن يلتفت اليها . سارت خلفه مطأطئة الرأس . حاول أن يشرح لها . كان مخلصـا يحاول أن يوضح سبب ثورته . فعل كل ما يستطيع ليخرج كلامه منطقيا ومقبولا . هو نفسه لا يصـدق أحيانا ما يقوله لنفسه وللآخرين . لكنها يجب أن تصدقه الآن . وقف فى مواجهتها تماما . أمسكها من كتفيها . هزها . هبطت كفاه تمسكانها من ذراعيها . وجهها مستسلم . أغمض عينيه برهـة . فتحهما . قـال انه يعتـذر لها عن كل ما حدث . ثم استدار ومضى مبتعدا عنها .

***

فى مستطيل الضـوء الشاحب الساقط من النافـذة كان يجلس معتمدا برأسه على قبضتيه . انحسر الضـوء وانسحب

تاركا الحجرة تغوص ببطء فى الظلام . الصمت يلف كل شيء حوله . أصوات الشارع البعيد تصل اليه ضعيفة متداخلة لا يستطيع التمييز بينها . ضوء مصباح السلم يتسلل خلال زجاج الباب واهنا . كل خلية حية داخل كيانه المتعب تتمنى مجيئها .. يحس بمسام جسمه كلها متفتحة تنتظر نقرة أصابعها السريعة على الزجاج . طافت بذهنه فكرة أن يخرج يفتش عنها فى كل مكان فربما لا تجيء .. هل يذهب الى حيث تركها ؟ لا يحتمل الانتظار الى الغد . لو جاءت الآن .. من يدرى .. قد يسألها أن توافق على الزواج منه . لا ينكر .. لا يستطيع أن ينكر أنه يحتاجها . لا يثق كثيرا فى مشاعره صباح الغد . ربما لن يراها .. ربما أيضا يظل جامدا على موقف الأمس دون أن يتقدم خطوة .. الآن كل شيء .. أو .. فلا شيء بالمرة .. على الاطلاق .. نعم .. يحتاج اليها بالفعل .. لا يتصور فكرة أنه يستطيع الاستمرار فى حياته بدونها . لا ينسى أنفاسها تلفح رقبته . أناملها الرقيقة تتحسس وجهه وتعبث بشعره . همسها يتسلل الى دمه .. يفتح أمامه كل الأبواب . من أين تجد حلا لكل شيء . لا يريد منها سوى هذا الشعور بالأمان الذى تنشره حوله وتبعثه فيه . يحب ابتساماتها كبقع الضوء تلمع وسط ظلام حياته . ابتسم لنفسه عندما تصورها سفينة تحمله . هى سفينته التى يبحر بها .. يشق بها أمواج كالجبال .. أعجبته فكرة أن المرأة سفينة .. ليست أى امرأة .

قرر أن يحكى لها فكرته هـذه عنها . ستضحك وتمد كفهـا مفرودة الأصابع تتخلل أصابعه .. تطوح رأسها للخلف فيهتز شعرها . فتاة طيبة ـ قـال لنفسه ـ متى تجىء ؟ .. لابد أنه انتظر طويلا .. لا يدرى كم من الوقت مر وهو جالس فى مكانه لا يتحرك . نهض . كان خيـالها خلف الزجـاج . نعم هى . طولها .. عرضها .. كل مقاسات جسـدها يعرفها .. شـعرها عندما تفرده .. عندما تلمه .. بلوزتها السـماوى ذات الياقة القصيرة المستديرة وأساور الاكمام المنتهية بالدانتيل . بلوزتها السماوى تتحرك خلف زجاج بابه .. لابد أنها تضـع خاتمها ذا الحجر الأصفر حول أصبعها فهى تحب هذا الخاتم بالتحديد . يذكر يوم اشتراه لها . لم تتردد لحظـة فى الاختيار. خطف بصرها منذ النظرة الأولى . تأملته من كل زواياه . قبلته ووضعته حول أصبعها قلبت كفها أمام عينيها . مدت ذراعها على آخرها ونظرت الى الخـاتم .. كانت عيناها فى ذلك اليوم ضحـكة كبيرة لا ينساها . امتدت أصبعهـا تنقر فوق الزجـاج . ببطء اتجه نحو الباب . وقف خلفه يستمع لنقرات أصابعها .. يحب أصابعها نقراتها على الزجـاج هى آجمل ما يسمع من أصوات فى هذه اللحظة . سينتظر حتى تعيد النقر على الزجاج مرة ثانية وثالثة ثم يفتح . مد كفه يسحب المزلاج ببطء شديد مستمتعا أنه يفتح لها هى الباب . سيزيح ما يفصـل بينه وبينها .. أليس الباب الآن هو كل ما يمنعها عنه ويمنعه عنها .. سيفتحه ..

ها هو يفتحه •• لن يكون بينهما أى حاجز منذ اللحظـة ••
لو استطاع نسف الباب لفعل دون تردد • على آخره فتح الباب
أمامها •• تراجع خطوة للخلف يفسح لها لتدخل • أغمض عينيه
ليضاعف من وجودها معه • مرة أمامه وأخرى فى خياله •• مد
ذراعه يحتضنها لدى أول خطوة لها داخل الشقة • تهيأ لها فى
حضنه • هوت الكف على صدغه سريعة باترة • كالنار لسعته
أناملها •• فتح عينيه بسرعة مذهولا •• فيهما تساؤل لا يفهم
ما يحـدث •• كانت عيناها مملوءتين غضـبا •• قالت كلاما
كثيرا •• لم يكن وجهها أمامه هو الذى يعرفه •• الذى انتظره
وحلم به ••كان وجها عدوا متجهما لا يأبه له وربما أيضا لا يعرفه
•• طنت فى رأسه مئات الأفكار •• لم يسمع حرفا مما قالت
•• تجمد السـؤال ــ لمـاذا ــ فى عينيه حتى فقد معناه ••
استدارت تهبط الدرج بسرعة • رغم الطنين فى أذنيه خيل اليه
لآخر لحظة أنه مازال يسمع طرقعة خطواتها الهابطة على السلم •



الصراخ بعد منتصف الليل !

لم أستطع أن أحدد مصدر الصوت فى البداية .. رفعت رأسى وانتظرت .. مرت الثوانى ثقيلة .. بطيئة . فجأة جلجلت الصرخة مرة أخرى تشرخ السكون فقفزت فى فراشى .. أرهفت حواسى كلها وجلست متحفزا أحملق فى الظلام وقد طار النوم من جفونى .. والآن تأكدت من مصـــدر الصرخة .. سمعتها واضحة تدوى وتلف فى كل مـــكان توقظ النائمـــين وتوقف السائرين وتدق أبواب البيوت وتصطدم بالنوافذ .. سمعتها سريعة . متلهفة تطلب النجدة . انتظرت فترة توقعت فيها ضوضاء النوافذ والأبواب وهى تنفتح تسأل عن الخبر لكن لم يحـــدث شىء . أدهشنى أنه لم يسمعها أحد غيرى .. تصورت للحظـــة أننى ربما كنت أحلم لكنها كانت واضحـــة وحقيقية .. كانت « آه » لاهفة .. مبحوحة بائسة .. ذليلة تنادينى .

رفعت الغطاء فى حذر وتسللت فى هدوء نحو باب الشقة .. سمعت صـــوت الأقدام تهرول على السلم هابطـــة يتكسر تحت وقعها صمت الليل الراقد كالجثة المنتفخة تسد فراغ المكان . انتابنى شعور بالخوف وراح يدب داخلى فى ايقاع متصاعد .. رغم ذلك .. فتحت البـــاب . مددت رأسى للخـــارج فلسعنى

البرد •• ارهفت سمعى •• نظرت أمامى فى الظـلام الى آخر السلم لكننى لم أر أحدا • كان صـوت الأقدام قد ابتعد وهدأ كل شىء وعاد صوت السـيارات البعيدة اللاهثة فوق أسفلت الشوارع الخالية يصـل الى سمعى متقطعا رتيبا كل يوم فى مثل هذا الوقت من الليل •

سحبت البـاب خلفى فأظلم المكان تمـاما •• ترددت فى الصعود لحظـات •• فكرت ثم رحت أقفز درجات السلم فى خفة حتى بلغت شقتها وقـد تسارعت أنفاسى كان ثمة ضـوء واهن يتسلل خارجا من تحت عقب الباب • انحنيت أضع أذنى فوق الثقب أحـاول أن أسمع •• كانت فى الداخل تنتحب • نقرت بأصبعى على الزجاج نقرات خفيفة سريعة ودقـات قلبى تعلو وتطن فى أذنى فجأة توقف صـوت النحيب فانتظرت فى مكانى أمام الباب ولكن لم يفتح أحد •• عدت أنقر على الزجاج مرة أخرى فجاءنى صوتها اللاهث خائفا منكسرا يسأل • رفعت صـوتى مستفسرا ان كان قد حـدث عندها أى شىء سمعت أقدامها تقترب من الباب مدت يدها تفتح الشراعة الزجاجيـة فسقط النور على وجهى •• بربشت بعينى فى النور ولم أتمكن من رؤية ملامحها بوضوح كان الظلام يغطى وجهها كله ويتخلل شعرها الليلى الناعم فيحيله أمامى شـلالا من ليل ونور انهمر فجـأة •

قالت وقد عرفتنى : أنت ! وانحنت تفتح الباب . تقدمت خطوة مدت يدها تسحبنى بسرعة وتغلق الباب خلفى وقد بان الفزع واضحا فى نظراتها .

سألتنى وهى تقودنى الى الداخل ان كان قد رآنى

لم أفهم فسألت من هو ؟ فالتفتت الى مستغربة ردى ، انها كانت تتصــور أننى أعرف كل شىء هززت رأسى موضحا لها اننى لا أفهم وأريد أن أعرف منها هى كل شىء . غطت وجههــا بكفيها وأجهشت وراح جسدها كله يهتز ..

من خلال فتحات ثوبها الممزق بانت بعض أجزاء من جسدها الشاب العفى .. هناك رغم ذلك بعض الكدمات والخدوش . وقفت أتحسس بعينى تقاسيم جسمها الرائع . سألتها اذا كان يضربها . هزت رأسها مستضعفة وشهقاتها تتواصــل . أضفت : لكنك تستطعين . لم أكمل . أجابت انها لن تتركه ينال منهــا مطلقا وانها لن تستسلم له وراحت تدق على فخذها . رفعت رأسها الى وقد تهدج صوتها : أنت لا تفهم .. هو دائما أقوى منى .. سألتنى ان كنت أدرك معنى ذلك ..

لم أكن أدرك ما تقصــده فاقتربت منهــا ومــددت كفى الصغيرة الى وجهها . كان وجهها ساخنا ناعما أحسست بأصابعى الرقيقة تنغرس فيه ، مسحت بكفى الدموع من عينيها المنكسرتين

فضمتنى الى صـــدرها • وشـــعرت برغبة حقيقية فى آلا أفارقها وغمرنى دفئها فاستكنت فى حضنها أتشمم رائحتهـــا القوية •• كانت مزيجا من رائحة الخبز الطازج وورق الشجر الأخضر وطين الأرض المروية حديثا • رفعت رأسى أخبرها أن لها رائحة ليست غريبة عنى وأننى بالتأكيد أعرفها •• شممتها قبل اليوم وأشمها كل يوم ولم آكن أعرف من أين تهب على ، لانت ملامحها وأطلقت ضحكة رائقة ارتحت لها وآحسست بالأمان يغمرنا معا •

قلت والانفعال يهزنى أننى لن أتركها آبدا وسألتها ان كانت تقبل أن أظل معها مدت ذراعها تطوق رقبتى وسألتنى ان كنت فعلا أحبهـــا أدهشنى ســـؤالها أقســـمت لها أننى بالفعل أحبها قامت تسوى ثيابها وشعرها ، طوحته للخلف ثم لمتـــه وشبكته فبان بياض رقبتها واســـتدارة وجهها وبدت أجمل فى نظرى من كل من عرفت •• استدارت أمام المرآة تستعرض جسدها من كل الزوايا • ابتسمت وسألتنى ان كانت تبدو جميلة قلت انهـــا أجمل من كل الدنيا واننى آحبها ولا أريد أن أتركهـــا انحنت وقبلتنى فى خدى ثم فى جبهتى واستأذنت فى آن تذهب وتعود • بعد فترة عادت الى وقد بدلت ثيابها ومشطت شـــعرها فبدت كأميرات الأساطير قلت لها انها تشبه الآن ست الحسن والجمال التى سمعت عنها فى الحواديت التى كانت تحكيها لى آمى قبل النوم ردت بابتسامة سريعة ثم دست يدها فى صدرها وأخرجت منه مفتاحا كبيرا دفعته الى لأحتفظ به معى •

أمسكت المفتـاح فى يدى أقلبه دون أن أفهم ، رفعت اليها عينى مستفسرا فقالت باهتمام ، اذا عاد أصعد وافتح • تراجعت للخلف مذعورا : أنا ؟ !

مدت يدها غاضبة تخطف المفتاح من يدى ودفعتنى أمامها لأخرج وهى تنهرنى ، تشبثت بالمفتـاح وشددت قبضتى عليه • قلت وأنا أضغط على كلماتى أننى سأبقى وقد ملأتنى الرغبة فى المخاطرة للنهاية •

زفرت فى ارتيـاح وعادت تضمنى اليها ثم أوصلتنى الى الباب • تبادلنا نظرة قبل أن أنزل ، هزت رأسها مشجعة فهززت رأسى موافقا واستدرت أعدو هابطا السلم •

***

عندما عاد ، سمعت صوته كنت قد مكثت عدة ليال أسهر وأنتظره • قفزت من فراشى مسرعا الى الباب وانحنيت فى الظلام ألصق أذنى بالخشب وجسدى كله ينتفض بالخوف والغضب • كان الليل قد تقدم وماتت كل الأصـوات • خشخشت أقدامه عند العتبة الخارجية • تسارعت أنفاسى وازدادت دقات قلبى عنفا فتصورت ان بامكانه أن يسمعها فيتنبه لوجودى • ابتعدت عن الباب قليلا وأرهفت السـمع • كانت حبات العرق البارد تتجمع فوق جبهتى وفى راحتى فاختلطت برودة المفتاح فى كفى

بالعرق وسرت قشعريرة فى جسدى كله فارتعدت • ازداد وقع خطواته اقترابا وارتفعت دقاتها بينما كان يقتحم هدأة منزلنا فى جرأة لا تعرف الخوف • قلت لنفسى انه بالتأكيد هو فلا أحد غيره يمكن أن يأتى فى مثل هذا الوقت •

كان صــوت حذائه ينهش لحم الســكون المسترخى فى منتصف الليل مارقا أمام بأبى ثم صاعدا السلم خطوة • خطوة فى اصرار راح الصــوت يبتعد فيشتعل خوفى « الآن سيدخل عليها » ويبتعد حتى يتلاشى • سمعت صوت اصطدام مفتاحه ببابها بعد لحظة سمعت صرير الباب وهو ينفتح « الآن سيدخل عليها » فاندفع الدم حارا الى رأسى ودار الغضب داخلى دورة ثم توقف متحفزا التأم جرح الصمت فلم أعد اسمع شيئا •• ببطء أدرت مقبض الباب وخرجت •• تقدمت خطوة خطوة حتى وقفت تحت الســلم مباشرة أنتظر • مر الوقت كسيحا وأنــا لا أسمع شيئا ولا أرى شيئا •

سمعت الصرخة •• كانت هذه المرة حادة كالمدية انغرست فى أذنى ونفذت الى قلبى واســتقرت فيه كالطلقــة •• كانت الصرخة لى وحدى كالسر بيننا لا يعرفه غيرنا •• شفرة لا يفهمها ســواى •• وصلتنى رسالتها لى فاندفعت أقفز الســلم حتى بلغت بابها وقفت متحفزا لاهث الأنفاس أبحث عن الثقب أضع فيه مفتاحى والغضب يرج كيانى كله • كالمجنون اقتحمت شقتها

أبحث عنه •• ضربت باب حجرتها بقدمى ووقفت مبهوتا أرقب المشهد لحظة • كان بثقله يجثم فوقها يكاد يخنقها وهى من تحته تستميت فى دفعه عنها تركله وتخمشه بأظافرها وتشيح بوجهها بعيدا عن أنفاسه الكريهـة وكل ذرة فيها ترفضـه وتقاوم • تعرت ساقاها فاشتعل دمى فى عروقى ووثبت اليه ، كان يحـاول ملاحقتها بيديه ووجهه يحاول اسكات حركتها لكنها كانت تقاومه فى اصرار عنيد لا يتوقف • تعلقت برقبته من الخلف أحـاول خنقه بذراعى ، أحس بى فقام يفك ذراعى المستميت حول رقبته ثم اسـتدار وقد حملنى الى أعلى ، قهقه منتصرا وألقـانى الى الأرض فارتطم كيانى كله بالحائط وأحسست أننى أفقد الوعى وحاولت أن أتماسك ولا أضعف •

رغم الألم الهائل الذى انتابنى قمت أهاجمه مرة أخرى ، تذكرت المفتاح فى يدى فهويت على رأسه ووجهه أضرب بلا توقف حتى انفجر الدم منه فاستدار الى بعد أن تركها وقد بان على وجهه كل ما يحمل من حقد لقتلى •

تراجعت للخلف مذعورا والتصقت بالحائط فانقض على وأطبق بكفيه الخشنتين على رقبتى وراح يضغط يريد خنقى • احتبس الدم فى وجهى وعينى وتوقفت عن التنفس • سـمعت صرختها • كالنمر الجريح وثبت اليه وتشبثت برقبته تجذبه بعيدا عنى فتركنى أسقط واستدار اليها ورفع ذراعه وراح ينهال عليها

بقسوة فأنشبت أظافرها فى وجهه ، نهضت من سقطتى ورفعت المفتــاح فى يدى أضربه به من جديد فالتفت الى وقــد قرر أن يتخلص منى نهائيــا • أطبق كفيــه على كتفى ورفعنى ثم راح يخبطنى فى الحائط فأحسست بالدم يتفجر من مؤخرة رأسى ، ركلته بقدمى بكل ما تبقى لى من قوة فارتمى على الأرض يتلوى من الألم نهضت من فوقه ووقفت أنظر اليها لاهث الأنفــاس ، أشارت اليه ، فهمت ما ترمى اليه فتقدمت اليه مرة أخرى ورحت أركله فى كل مكان بينما كان يتلوى تحت وقــع ركلاتى حتى سكنت حركته تماما ، تقدمت هى ودفعتنى بعيدا عنه فتراجعت للخلف لا أدرى ماذا أفعل بعد ذلك • انحنت فوقه تهزه ، رفعت ذراعه ثم أسقطتها فتهاوت الى جواره رفعت وجهها لى وفتحت ذراعيها ارتميت بين ذراعيها خائفا احتمى فى حضــنها ، فردت أصابعها تمسح عرقى المختلط بدمى وتربت فوق ظهرى ، رفعت طرف قميصى ورحت أمسح وجهها وأسوى شعرها ابتسمت فى وجهى وتنهدت فى ارتياح عميق • التفتت الى الجسد الساكن خلفها ومدت يدها تفتش عن المفتاح فى جيبه • أخرجته ودسته فى صدرها • همست فى أذنى بأن المفتاح الذى فى حوزتى قد أصبح لى الآن وحدى أحسست برعدة تسرى فى كيانى كله ، تحسست المفتــاح البارد فى كفى ورفعت وجهى ألقى نظرة من فوق كتفها على الجسد المكوم خلفنا فى منتصف الغرفــة وقد لاح لى أننى بدأت أفهم ••

اعمدة الفهم المطبق

عندما جاء قمت من مكانى متجها نحوه •• « بعد قليل تضىء مصابيح الشـوارع •• » لمحته يخرج من المنعطف •• جلبابه الأبيض يهتز مع الهواء والعصا تتأرجح فى يده •• وعندما اقترب ، توقف لحظـة يستريح •• وضـع قدمه اليسرى على حافة الرصيف •• رفع العصا ووضعها الى جوارها •• ألقى كل ثقله عليها ورفع جسمه حتى صار فوق الرصيف تماما •• نظر الينا والعرق يبلل وجهه ورقبته وابتسم متقدما نحونا تقدمت نحوه فاردا يدى •• نقل عصاه الى يده اليسرى مرة أخرى ومد كفه العريضة مصافحا يسألنى عن الأحوال •• استند الى كتفى فسرت به الى الركن حيث جلسنا •

كنت شغوفا بالاستماع اليه ، وهو عندما يتكلم تستدير الرءوس نحوه تنصت اليه ، لذلك كنا جميعا ننتظره كل يـوم فى نفس الميعاد تقريبا حيث يكون قد فرغ من مشاغله •

رفع عصاته مشـيرا للساقى •• ألقى عليه طلبه ثم أراح

العصا على المنضدة بينى وبينه تأملت العصا أثناء كلامه • كانت بنية اللون ذات تعاريج كثيرة مليئة بالعقد ، لكنها مع ذلك كانت لامعة ذات طرف مدبب ينتهى بحلقة معدنية صغيرة •

فى البداية قال ان الجو اليوم حار على غير العادة •• هززت رأسى موافقا • أبدى أسفه بعد ذلك لأنه لم يأت مبكرا ليشهد مباراة الطاولة بين زميلين قديمين له يعرفهما منذ كان يعمل فى الحكومة أردف بعد فترة قائلا انه يعجب لماذا يسير الناس بمثل هذه السرعة فى الشوارع • وتساءل : هل ستطير الدنيا ؟ ضحك ضحكة قصيرة خشنة سكت بعدها حتى جاء الساقى يحمل قهوته وأكواب الماء البارد والشاى والنرجيلة •• أخذت أراقب الساقى بينما راحت يده تنتقل فى سرعة بين الصينية والمنضدة • وضع النرجيلة والأكواب وانصرف • استقرت النرجيلة بين ساقيه •• جذب جلبابه الأبيض الى أعلى قليلا ثم رفع خرطوم النرجيلة الى فمه وجذب نفسا طويلا فتوهجت نارها ••انطلقت أنفاس الدخان الذكية من طاقتى أنفه •• وضع الخرطوم أمامه على المنضدة ثم تناول قهوته •• رفعها ببطء الى فمه محاذرا ان تنسكب •• رشف منها رشفة واحدة ثم أعادها الى مكانها •• مددت يدى الى كوب الماء أرشف منه ثم أعدته الى نفس مكانه متعمدا أن أضعه تماما فوق دائرة الماء التى تخلفت تحته •• تمنيت لو أنه وضع فنجانه فى مكانه بالضبط ••

فكرت فى أن أنبهه الى هــذا لكننى لم أجد فى نفسى الرغبة فى الكلام فسكت ..

بكلتا يدى رحت أتحسس سترتى أفتش عن علبة سجائرى .. مد يده لى بعلبة سجائره فسحبت منها واحدة وهززت رأسى أشكره . أعادها الى جيبه وعــاد يرشف من فنجان القهوة .. قال دون أن يلتفت الى أنه يفضـــل النرجيلة لأنها أقل خطرا من السيجارة .. هممت أن أسأله عن سبب حمله لعلبة السجائر ثم تراجعت لاعتقادى فى سخف السؤال . أضاف أنه رغم ذلك يحمل معه دائما علبة السجائر لأنه لا يستطيع أن يقدم نرجيلته للناس ثم ضحك بشدة حتى سعل . انحنى يبصق أمامه موسعا ما بين ساقيه ثم مد حذاءه يدهس بصقته . اخرج من جيبه منديـــلا نظيفا مسح به فمه ثم أعاده الى جيبه . كنت متأكدا أننى مازلت لا أعرفه حق المعرفة رغم ارتياحى الشديد اليه .. بعد أن فرغ من احتساء قهوته أزاح النرجيلة بعيدا ثم أخرج من جيب سترته الداخلى صحيفة مطوية بعناية بسطها أمامه وراح يقرأ فيهـــا باهتمـــام حتى خيل لى أنه قــد نسى وجودى الى جواره .. خفضت رأسى أنظر الى عناوين الصحيفة المكتوبة باللون الأحمر والأخرى ذات اللون الأسود متأملا صفوف الكلام الســـوداء ورحت أحملق فى الصور ومساحات الاعلانات تعجبت فى نفسى كيف يمكن أن تحمل صفحة واحـــدة من الصحيفة كل هـــذه

الكمية من الكلمات والحروف مصفوفة حرفا الى جوار حرف فى اصرار غريب يبعث على الملل ، وأدهشنى أنه لا يسأم من أن يقرأ هو كل هــذا ويفهمه !

أشرت الى مكان فى الصحيفة وسألته عما فيه • نظر اليه طويلا ثم وضــع الصحيفة جانبا وبدأ يشرح لى •• كنت أتابعه بنظرى أحاول أن أفهم •• بينما مضى هو ينقل بصره بين الصحيفة وبينى يقرأ لى ويضيف من عنده معلقا على ما يقرأ •• أدركت ذلك من نبرة صــوته وعندما أبديت له هذه الملاحظــة قال ان الحقيقة ليست دائما فى الكلام المكتوب لكنها فيما يمكن أن نفهمه نحن من هذا الكلام وفيما نريده منه •••

لم أفهم ما يعنيه بالتحديد •• قلت محاولا أن ألفت نظره الى أن الحقيقة أحيانا ــ كما يعرف ــ قد لا تحتــاج الى أى كلام •• نظر الى طويلا ثم هز رأسه وتناول الصحيفة وعــاد يستأنف القراءة •

كان شــكل الحروف قد استهوانى تماما ورحت أتأمــل ترتيبها ووضعها فى الصحيفة محــاولا أن أفهم العلاقــة بينها وتصورت أن بينها كلاما تقوله بعضها لبعض لذلك كانت فرحتى تتزايد عندما اكتشفت أن هناك تشابها بينها أو حين أعثر على اختلاف بين حرف وحرف •• أردت أن أخبره باكتشافى هذا ••

ترددت لحظة ثم هززت ذراعه .. رفع رأسه ناظرا الى دون أن ينزل الصحيفة . قلت له اننى اكتشفت آن هنـاك عددا كبيرا من الكلمات المتشابهة وعددا أكبر من الحروف المتشابهة كذلك لكننى لا أعرف أسماءها أو كيف أنطقهـا .. تفرس فى وجهى لحظة ثم أنزل الصحيفة وفردها بيننا وسألنى باهتمام .. أين ؟ أشرت الى السطور وانحنى معى يتأملها متابعا اشارتى فى انفعال. رفع عينيه الى طويلا ثم ابتسم .. لمس كتفى بيده قائلا اننى هـكذا بدأت أقترب من الفهم .. كان يساورنى أحيانا بعض الشـك فى أنه ربما يكون مجنونا .. لكننى رغم هـذا كنت سعيدا لكلامه .. أضاف وهو يواصل هز رأسه اننى لابد يوما ما سأفهم كل شىء وان على فقط أن أصبر . عدت الى صمتى بينما اعتدل هو فوق مقعده ومضى يواصـل القراءة فى صمت واهتمام .

عندما عاد الساقى يرفع الأكواب لم أهتم بأن أتابع يديه وهما تعمـلان . كنت قد سئمت كل شىء وبـدأت أفـكر فى الانصراف وأرتب فى نفسى كيف سأخبره بهذا وعندما قررت أن أفاتحـه برغبتى فى مغـادرة المكان كان هو قد فرغ من قراءة الصحيفة .. طواها فى غير اكتراث وألقاها الى جـواره فوق المنضدة ثم أسند مرفقه فوقها وسرح لحظة ينظر عبر الشارع . التفت الى فجأة ثم زفر قائلا انه أصبح الآن يؤمن انه لا شىء يمكن أن يعود كما كان .. لا شىء .

سألته عما يقصده بكلامه هذا فأجاب بأنني مازلت لا أفهم وأوضح لى انه يعنى كل شىء لأن كل شىء قد تغير ومستحيل أن يعود الى ما كان عليه .. قلت ان هذا مستحيل بالطبع .. قطب جبينه قائلا انه كان يعرف انني أيضا مثلهم لكنه فقط لم يكن يتصـور ان كل هذا يمكن أن يحدث بمثل هذه السرعة .. أضاف ان ما يحيره أنه لا يفهم السر فى كل هـذا والتفت الى يسألنى ان كنت أنا أيضا أفهم . لم أكن قد فهمت شيئا مما يعنيه لكننى خمنت أنه ربما يقصد أن الحياة قد أصبحت بالنسبة له شيئا عسـير الفهم ، فاتحته فى تصـورى هذا خبط المنضـدة بكفه وهم واقفا فنهضت أسـاعده . تناول عصـاته وسحب الصحيفة ، أشار للساقى ، دفع له الحساب وشـكرنى ومضى مبتعدا بطيء الخطوات .

جلست فى مكانى ارقبه بينما رحت أفكر فى كلامه .. على بعد خطوات توقف ، استدار نحوى ، رفع الصحيفة فى يده هزها فى الهواء ثم طوحها نحوى وعاد يواصل سيره .. ملت بجسمى كله أحاول التقاطها لكنهـا سقطت على الأرض بعيدا عنى .. مددت ساقى أحاول سحبها وعندما أصبحت أمامى تماما انحنيت ألتقطها ، رفعتها أمامى ورحت أقلب صفحاتها .. كانت صفوف

الكلام ما تزال فى مكانها •• حملقت فيها أحاول أن أفهم السر فى ثورته ••

***

كانت مصابيح الشوارع كلها قد أضيئت والتف الصبية تحتها يتصايحون فى حين ظل المصباح الواقع عند نهاية الشارع يومض وينطفىء بينما كنت أنا قد فرغت من طى الصحيفة بعناية فدسستها فى جيبى • وقمت فى هدوء أغادر المكان •



وخبط « البك » كفا بكف .. !

اف ف ف ...

يعرف شكل اليوم من أوله ..

وقف .. الصابون على وجهه وفى عينيه .. والصنبور أمامه جاف كقلب الكافر ..

وتر الصبر داخله مشدود على الآخر ..

زعق على زوجته ..

ـ الحنفية ما فيهاش ميه ..

ماذا جنت فى حياتها ليبتليها الله برجل كالطفل كثير الشكوى !!

ـ حاجة مش جديدة .. ما أنت عارف ان ما فيهاش ميه .

تمنى فى تلك اللحظة بكل حرارة الصدمة أن يأخذه الله ويريحه من هذه المرأة ..

غمغم لنفسه « كان يوم أسود » .

قالت : بتقول حاجة ؟ !

قال فى سره « ورتمها واقع كمان •• يا باى ! » •

قال كمن يخطب : يا هانم أنا عارف •• باسألك ما خزنتيش ميه من بالليل ليه •• هه !!

كمن جاءها الفرج أسرعت اليه :

ـ وحياتك فاتحاها طول الليل •• طل •• ومدت يدهـا تزيح غطاء « البستلة » ••

فتح عينيه تحت الصابون •• هتف مدهوشا :

ـ عسل أسود فى الحمام ليه •• ثم أنا باسألك عن الميه أشيل الصابون اللى كل عينى •• انتى مخك ايه ••

ولأنها بنت بلد ولا تفوتها النكتـة •• كركعت بالضحك وهى تخبطه على ظهره ••

ـ عسل أسود ومنيل •• دى الميه •• سلامة الشوف ••

أشار اليها مستنكرا ••

ـ عاوزانى أغســل وشى وعنيا بدى •• ناولينى الفوطة ناولى خلينى أغور ••

يعرف شــكل اليوم من أوله •• وهو يحبو على يديــه

وركبتيه يبحث تحت السرير عن فردة الجورب البنى .. عن ثلاث سجاير تركها فوق الكومودينو قبل أن ينام .. يعلم أنها تخفيها فى علبة فارغة فى المطبخ .. لو سألها عنها فسيشعل فى البيت حريقا هو غير جاهز لاطفائه الآن .. موشح ودرس عن أضرار التدخين .. عن هلك الصحة والفلوس تختمها ككل مرة :

ـ أنا عارفة السجاير دى كمان كانت أكل ولا شرب .

لن يسألها عن الجورب أيضا .. لا يطيق نفسه الآن ..

يحس فى نفسه ميلا للبكاء .. يكبت غيظه ويسكت .. لملم أشياءه المبعثرة على عجل .. ألقى نظرة سريعة على نفسه فى المرآة .

ـ يا راجل افرد خلقتك

ـ حاضر .. حابقى أفوت على المكوجى يفردها لى ..

وانفلت يفتح الباب ويقفز السلالم .. أطلت خلفه .

ـ مش ها تفطر ولا ايه ؟

ـ مش ها تسمم !

يقولها من بين أسنانه .. يدور مع لفة السلم مرة .. مرتين ثم تبتلعه زحمة الشوارع .

كالمجنون يعدو خلف الأتوبيسات •• تذكر عربة الرش وهو وسط الصبية يعدو خلفها حافى القدمين ذيل جلبابه فى أسنانه •• لو كان البال رائقا لضحك للمشــهد •• ألقى نظرة سريعة الى ساعته « تانى » قالها لنفسه •• اليوم أيضا سيسمع نفس الدرس من يونس بك •• يلقيه فى وقار العظماء وحــكمة الشيوخ •• يبدى عطفا مترفعا نحوه •• يموت ذلا وهوانا أمامه •

ــ وبعدين يا سليمان يا ابنى •• موش كده شكلك بقى وحش •• شكلى أنا كمان بقى وحش •

يريد أن يشرح له

ــ يافندم والله حضرتك عارف

يقاطعه •• لا يريد أن يسمع

ــ أنا عارف يا ســليمان •• أنا عــارف •• معلهش •• معلهش •• أبقى خد بالك

يربت فوق كتفه بحنان مزيف

ــ آخر مرة يا سليمان هه •• اتفضــل « كل مرة آخر مرة » قال لنفسه ما فيش فايدة تنبه على صوت الكمسارى

ــورق ياللى عامل أطرش ••

دار بعينيه حوله •• تأكد أنه المقصود بالكلام

ـ يعنى مش شايف •• طب أطلع لك الفلوس ازاى

ـ زى غيرك •• كالبهلوان •• جاهد ليضع يده فى جيبه •• ربع قدمه على سلم الأتوبيس •• ذراع الراكب الى جواره تمر مباشرة تحت أنفه •• يريد أن يعطس وأن يخرج ثمن التذكرة فى وقت واحد

ـ خلصنى ••

ـ صبرك بالله •• الدنيا طارت

دارت كفه فى جيبه تفتش عن البريزة الوحيدة التى بقيت معه •• أدار حسبة صغيرة فى رأسه فقرر بعدها أن يريح نفسه من الزحام مقتنعا تمام الاقتناع بفائدة رياضة المشى •• قفز من الأتوبيس وصوت الكمسارى خلفه يصفعه ••

ـ عالم بلطجية عايشة بلاش

يعرف شكل اليوم من أوله •• أكمل المشوار على قدميه الى عمله « ايه يعنى » قالها لنفسه همسا •• أحس فى نفسه شجاعة لم يتعودها •• توقف أمام أحد مطاعم الفول •• طلب ساندوتشين فول وفلافل •• عرج بعدها الى مقهى قريب •• اختار مقعدا فوق الرصيف •• جلس •• أراح ساقا فوق ساق •• صفق يطلب شايا •• أحس بالراحة وهو ينهض مستأنفا سيره الى العمل •• أمام المبنى خيل اليه أنه سمع شيئا داخله

يتكسر •• كصوت تحطم الزجاج •• أحس بالخوف يتسلل اليه •• بلع لعابه وراح يصعد السلالم « ايه يعنى » يسمعها لنفسه هذه المرة لعلها ترد اليه شيئا من شجاعته الهاربة ••

على غير عادته •• لم يعبأ برد تحية زملائه الذين التقى بهم علم السلم أو داخل ممرات المبنى •• دلف سريعا الى مكتبه •• نهض له زملاؤه مرحبين •• فى الجو رائحة غريبة لا تخفى عليه •• لابد أن فى الأمر شيئا ••

ـ أهلا سليمان بيه

ـ اتأخرت يا سليمان بيه

هب فيهم وأنفاسه تهرب منه

ـ فى أيه •• فى حاجة ؟ !

ـ خش ليونس بيه وأنت تعرف

ابتساماتهم لا تعجبه •• يونس بك نفسه لا يعجبه •• لن يحتمل منه كلمة منذ اليوم •• أبدا لن يقف أمامه كالتلميذ البليد يستمع لسخافاته وفلسفته التى لا معنى لها •• استدار عائدا الى مكتب يونس بك •• فتح الباب •• جمع أنفاسه واستعد للمقابلة •

فرد الرجل ذراعيــه فوق المكتب •• ابتسامة كبيرة تملأ وجهــه

ـ ايه يا سليمان •• وبعدها لك يعنى •• فاضى أنا استناك طول النهار لمــا تشرف سعادتك ؟ !

نهض الرجــل خارجا من وراء المكتب •• أحس سليمان بالخطر يقترب منه تراجع للخلف مســتندا الى الباب كحيوان محاصر يتوقع أن تنشب فيه الأنياب والمخالب فى أى لحظة وقف مستعدا للدفاع عن حياته متحفزا للرد على أى بادرة بالانقضاض

ـ يا سليمان أنت النهــاردة مش صغير •• أنت راجــل مســئول

لا يدرى كيف نطق بها لكن المؤكد أنه قالها •• نعم هو بعينه فالكلام يخرج منه •• وهــذا صوته الذى يعرفه يخرج منه عاليا يسمع كل المبنى ويخترق الأبواب والنوافذ والحيطان ليصل الى آذان كل الموظفين المفتوحــة على آخرها تلتقط كل كلمة تقلبها وتحللها وتفسرها •

ـ ايه يعنى •• كفرت •• كفايه بقى حرام عليك •• حرام عليكو كلكو

دون أن يترك له فرصة الكلام •• انطلق سليمان خارجا

كالقذيفة بينما وقف يونس بك مشدوها يخبط كفا بكف وسط موظفيه

ـ الراجل ده اتجنن مافيش كلام •• أنا يادوب ح أقول له مبروك يا سليمان صــدر قرار تعيينك رئيس قســم المتابعــة ألاقيه فرقع في وشي زى البارودة •• مجنون !!

بعــد البــكاء !

كانت ليلة ككل الليــالى .. لكننى فى الصــباح عندما استيقظت لم أجد أحدا . فى البداية ناديت بصــوت منخفض ، رفعت صوتى قليلا بعد ذلك .. نهضت وفتحت باب الغرفة فى حذر .. مددت رقبتى خارج الغرفة وناديت ..

كان الخوف قد بدأ يتسلل داخلى وراح الشك يزحف فى عروقى بطيئا .. بطيئا فى البداية .. خطوت خارج الباب خطوة ووقفت .. تلفت حولى .. ناديت فلم يخرج صوتى .. تنحنحت وناديت فخرج صوتى مبحوحا زائغا .. خطوت خطوة ثانيــة وثالثة .. ترددت قليلا ثم دخلت غرفتــه .. كانت معتمة بعض الشىء .. لم يكن ضوء النهار قد اقتحمها بعد كعادته كل يوم .. الساعة كانت جاوزت التاســعة بدقــائق ولم تكن الشمس تدخل الغرفة قبل الحادية عشرة فضغطت زر الكهرباء .. كان دولاب الملابس فى مكانــه وكذلك السرير والمقعدان والمشجب خلف الباب .. نفس ملابس الأمس معلقة عليه .. ثلاثة قمصان أحــدها ملون تزينه بعض الرسومات وريش الطيور وبنطلون رمادى وحزام من الجلد الأسود . سحبت الباب وخرجت الى الحمام .. أضأت النور واقتربت بوجهى من المرآة فوق الحوض

•• نظرت •• حركت وجهى يمينا وشمالا •• كانت عيناى منتفختين قليلا لا أدرى من النوم أو من السهر فى حين بدا شعرى مهوشا وخفيفا •• فردت أصابعى ورحت أمررها فوقه أسويه •• فتحت عينى قدر استطاعتى وقبلت جفونى أحدق فيهما •• كانتا محمرتين وشعرت بهما تؤلمانى •• أغمضت عينى بعض الوقت ثم فتحتهما مرة ثانية فأحسست بدوار خفيف وتذكرت ليلة الأمس •• كنت على غير عادتى قد أسرفت فى الشراب •• بعد البيرة طلبت كأسا من البراندى •• نظر الى مستغربا فأكدت الطلب •• أما هى فكانت تجلس قبالتى تماما فى حين كان يجلس بيننا •• تقريبا بيننا ، غمزها وأشار الى •• رفعت الكأس متحديا وشربته دفعة واحدة •• فتحت عينيها دهشة ثم رفعت كوب البيرة فى يدها (شيريو) •• أنزلت كأسى (شيريو) •• بينما راح هو يضحك فى جنون وينظر لها فتضحك •• نظرت اليها وضحكت فضحكنا •• توقفنا عن الضحك فجأة ثم تبادلنا النظر فانفجرنا فى الضحك من جديد •• أشرت للجرسون أطلب كأسا أخرى فرفعت أصبعها محذرة • رفعت يدى فى مواجهتها وأشرت للجرسون فانصرف يحضر الكأس •• قالت « أنت تشرب كثيرا »

قال هو « ككل ليلة »

قالت « كل ليلة لا يشرب بهذا الشكل » •

قال « وهو كذلك » ورفع كأسه فرفعت كأسى وابتسمنا لاحظت أنها تضحك كثيرا . قلت ورأسى يدور

« أنت الليلة جميلة جدا »

« مرسى »

قال « أنت سخيف .. هى كل ليلة جميلة »

قلت « أسكت أنت .. انت لا تفهم شيئا » أضفت وقد أحسست بها قريبة منى لأول مرة « لم تضحكى كما تضحكين اليوم .. كنت دائما متجهمة .. لماذا .. هه »

قالت « أنت لم تعرفنى .. هذا كل ما فى الأمر .. أنت لم تعرفنى »

انتبهت على قهقته ، وأدرت رأسى أنظر للناس حولى .. على أحدى الموائد خلفنا لمحت وجها التفت الى ضحكته المفاجئة فأصابنى وجوم مفاجىء .. رفعت كأسى الفارغة فى صمت فانزلقت قطعة الثلج فى فمى .. رفعت يدى بلا شعور أشير للجرسون .. كنت قد بدأت أشعر أننى أفقد وعيى .. قلت « أريد كأسا أخرى » قال « لا » نهضت واقفا أنهره لتدخله وأؤكد طلبى للجرسون قال « أنت حر » مططت شفتى بلا اكتراث وأكملت حديثى معها « بل أعرفك .. ماذا كنا نقول .. »

« أنت سكران »

« لا •• لا •• أنا •• ولكن ذلك يبدو غريبا »

قالت « ما هو »

قلت « اننا معا •• أقصد نحن الثلاثة »

قالت « لا أفهم »

اقتربت منها •• أشرت اليها فاقتربت •• همست فى أذنها •• لماذا هو معنا •• لماذا لا يتركنا •• قولى له »

تراجعت فجأة •• نظرت الى طويلا •• اليه •• قالت « نحن أصدقاء أليس كذلك •• »

أشعل هو سيجارته •• هز عود الثقاب فى يده ثم نفخه •• أشرت اليه أن يعطينى سيجارة •• قلت أشعلها من سيجارتك •• هز رأسه موافقا •• كان يبدو فى نظرى عاقلا واثقا من نفسه متمالكا لوعيه نظرت الى وسألت « أليس كذلك »

هززت رأسى « كنت أقصد انه »

قالت تسكتنى « أنت سكران وضحكت »

مد يده يسحبنى كى أقوم « هيا بنا •• لابد أن تنام الآن •• أنت سكران »

سحبت يدى بشدة •• وأنا أهز رأسى بعنف محتجا

والاحساس بالاهانة يفسد على متعة الخمر .. « دعنى » كنت أحاول أن أنفى لنفسى تصورى أننى سكران بالفعل وان كنت قد بدأت أقتنع بأننى سـكران تماما .. حاولت أن أتماسـك حتى لا أسقط أمامها .. استندت على ذراعـه وفتحت عينى الثقيلتين ووقفت أنقل نظرى بينهما .. كان وجهـه يبدو طويلا كوجه الحمار فضحكت ، وكان فمها يبدو واسعا كفم قنـاع الكوميديا فى حين بدت عيناها كحفرتين عميقتين ..

قلت أتحداه « لا شأن لك بى »

راودنى احساس أننى لم أكن أستطيع أن أقول له شـيئا كهذا فى وعيى .. تداريت خلف سـكرى لأتحداه .. واصلت بعد أن اكتشفت اننى استطيع أن أقول فى وجهه كل ما أريد « لمـاذا لا تتركنا .. ما شأنك بنا » دفعنى أمامه فمشيت رغم محاولاتى للتوقف .. التفت للخلف أنظر اليه .. كان ينظر أمامه مثبت نظره على هـدف لا أراه .. حاولت أن أفتش فى ذاكرتى عن سبب يبرر خوفى منه الى هذا الحد .. كنت متأكدا اننى أسبقه فى الدراسة .. كانت كتبى وكراساتى كلها نظيفة مرتبة .. درجاتى تفوق درجاته .. كان يستعير بعض كتبى ثم يعيدهـا الى متسخة أو ممزقة .. كان أقوى منى جسما لكن هـذا لم يكن سببا فى نظرى يكفى لخوفى منه .. سرت أمامه مستسلما حتى خرجنا الى الشارع فأحسست بلذعة الهواء البارد .. وقفت

أنظر ما سيفعله .. سمعت ضحكهما بعد فترة فالتفت اليهما .. سحب ذراعه من فوق كتفها مشيرا الى تاكسى .. سألتنى لماذا أنظر اليهما هكذا .. تجاهلت سؤالها وقفت أنتظر وظهرى لهما واحساسى يتزايد بأنهما يتهامسان ويشيران الى .. أطرقت أنظر الى الأرض كان ظلهما يمتد بعرض الشارع ويتسلق الحائط المقابل فى حين كان ظلى تحت قدمى .. فكرت للحظة أنه ربما كان أيضا يخشانى فلماذا سحب يده من فوق كتفها عندما التفت اليه .. استرحت للفكرة واغمضت عينى أنتظر التاكسى ..

أطفأت النور وانحنيت فى الظلام أدخل رأسى تحت الصنبور مستريحا للماء المندفع يغرق رأسى ووجهى وينزلق باردا منسابا فوق ظهرى .. بينما راحت بعض الدموع الدافئة تنساب مختلطة بالماء المتساقط من وجهى .

تأملات على سـور حجرى

مضيت أهبط الطريق المنحـدر نحو البحر . عند آخـر الطريق توقفت . حاولت أن أتذكر مكان المنزل . أمام الباب الخشبى العتيق وقفت . ترددت قليلا ثم بدأت أصعد الدرج . من بين فتحات الحديد المشغول على الطراز الاسـلامى مددت أصبعى ونقرت على الزجاج المنقوش على شكل وحدات زخرفية متكررة . تحسست جيب سـترتى المنتفخ .. أخرجت منديلا أجفف عرقى ووقفت أنتظر .

من خلف الحديد المشغول أطل الوجه العجوز .. سألتنى عمن أطلب . أجبتها . هزت رأسها فى أسف سألتنى ان كنت غريبـا عن البلد .. قلت أننى قضيت فترة بعيدا واننى عدت بالأمس فقط .. مصمصت شفتيها فى أسى وتمتمت كـلاما لم أسمعه .. دست يدها فى صـدرها المعروق وأخرجت منديلا متسخا تمخطت فيه بصـوت مسموع ثم كورته وأعادته مكانه .. أطرقت لحظـة ثم رفعت رأسها نحوى فبانت تجاعيد وجهها ورقبتها واضحـة لى تماما .. زفرت قائلة ان من أسـأل عنهم يسكنون بعيدا الآن .. وأضافت أنها لا تعرف أين بالتحديد . حكت لى كيف أنها رأتهم فى السوق منذ فترة ليست قصـيرة

وأنها تبادلت معهم كلمة أو كلمتين على الأكثر • توقفت تلتقط أنفاسها وواصلت قائلة انها قليلا ما تذهب الى السوق بسبب ضعف بصرها وآلام الروماتزم فى ساقيها • بعد لحظة سألتنى عما كنت أريده منهم بالضبط فشكرتها واستدرت أهبط الدرج وأدور مع السور الخشبى المتآكل •• قبل أن أبلغ نهاية السلم سمعت صوتها •• رفعت رأسى نحوها مائلا بجسمى قليلا للخارج حتى أتمكن من رؤيتها •• كانت تميل بجسمها كله فوق سور السلم القديم منحنية تنظر الى أسفل فبدا وجهها منتفخا وقد جحظت عيناها من أثر الانحناء مدت يدها خارج السور الخشبى فصلصلت ثلاث أساور زجاجية ملونة حول معصمها • أشارت قائلة انه يمكننى أن أسأل عنهم صاحب الحانوت الواقع على رأس الشارع التالى للمنزل •• ولوت ذراعها تشير اليه •• هززت رأسى موافقا ثم أسرعت أقفز الدرجات الباقية ••

••••••

كان ضوء النهار مازال يفرش الشوارع فتمتد الظلال على الأرض ساكنة وقد تصاعدت روائح الطبخ من البيوت مختلطة يصعب التمييز بينها

••••••

أمام الحانوت جلس الرجل وقد أراح احدى ساقيه فوق الأخرى وراح يقرأ جريدته فى ضوء النهار مستعينا بنظارة سميكة

الزجاج فوق عينيه لاحظت أن لها اطارا معدنيا لامعا وقد كبس فوق رأسه طاقية من قمـاش عريض الخطوط ..

توقفت أمام الرجل .. أنزل الجريدة .. ثناها ووضعها فى حجره ثم رفع رأسه نحوى .. ألقيت عليه التحيـة .. عدل وضع نظارته أمام عينيه ورد تحيتى فى بطء وترقب . قلت له اننى جئت أسأل عن سكان ذلك المنزل .. وأشرت بيدى تجاهه .. تابع اشارتى بعينيه .. أكملت كلامى قائلا ان السيدة العجوز هناك نصحتنى بأن أسأله هو ..

أنزل الرجل ساقه واعتدل فى جلسته .. تلفت حوله ثم قام متثاقلا يعتذر باعتلال صحته .. قال وهو يسعل انه قد تجاوز السبعين من عمره وان ذاكرته لم تعد تحفظ داخلها شيئا .. دخل الى الحانوت وعاد يحمل مقعدا قديما دعانى للجلوس عليه الى جواره .. ابتسمت أشـكره وجلست بينما راح هو يفتش فى ذاكرته مرددا الاسم الذى ذكرته .. التفت الى يسألنى عما أريده منهم .. أعدت عليه سرد الحكاية .. قلت له اننى أمضيت فترة طويلة بعيدا واننى عـدت بالأمس فقط أبحث عنهم لكننى لم أجدهم .. ساورتنى رغبة فى البكاء .. بلعت ريقى مرتين .. مد أصابعه النحيلة المعروقة يتحسس جبهته ثم مال نحوى .. اقتربت منه .. قال انه يستطيع مساعدتى لو اننى فقط صارحته بالهدف من سؤالى وغمز لى بعينه لم تعجبنى طريقته .. أمسكت

معصمه ورحت أضغط عليه وقد بدا ضيقى يزداد •• قلت له اننى أريد أن أعرف أين هم الآن لأن بيننا أمرا يهمنا نحن فقط واننى لابد أن انتهى منه ••

خلص الرجل معصمه من كفى واعتدل متكلفا الابتسـام فبانت لثته الباهتة •• فرك يديه قـائلا انه يفهم كل شىء رغم ما يقولون عنه • أضـاف انهم جميعـا كذابون واننى يجب ألا أصدقهم •• لم أهتم بكلامه •• واصل كلامه قائلا انه لم يعد يراهم هذه الأيام كما كان يحدث من قبل •• وراح يحكى لى عن علاقته بهم •• اخرج من جيب سترته صورة قديمة مدها نحوى •• هممت بتناولها لكنه أعادها الى جيبه •• أطرق الرجل قائـلا انه يريد مساعدتى لكن •• أدركت غرضـه • أخرجت حافظتى وفتحتها أمامه •• تهلل وجه الرجـل •• مد أصابعـه المرتعشة يسحب منها ورقة مالية •• طواها بعناية ودسـها فى جيبه ثم أخرج الصـورة •• خطفتهـا من يده ورحت أتفرس فيها •• كانوا « هم » كما كنت أعرفهم •• أشار الرجل الى صورته بينهم ومضى يحكى دون أن أسمعه •• نهضت واقفا أتأهب للانصراف •• أشرت الى الحافظة فى جيبى ووعدت بمبلغ آخر لو انه ساعدنى ••

قال الرجل وهو يحاول القيام اننى لو استطعت العودة فى المساء فسأجد عنده خبرا أكيدا عنهم •• شـكرته ثم استدرت

منصرفا •• عبرت الطريق أمام الحانوت •• توقفت لحظة أتطلع الى الصورة ثم واصلت سيرى •

••••••

••••••

كنت مقتنعا أن الرجل يكذب لكننى فشلت فى العثور على السبب رغم تأكدى من أنه يعرف أين أجدهم •• أحكمت معطفى حولى وتسلقت السـور الحجرى العريض وانصرفت الى تأمل الموضوع كله بشـكل كامل مقلبا كل احتمالاته •• تحسست الصورة فى جيبى •• أخرجتها ورحت أعيد النظر اليها •• نفس الوجوه •• بعضها يبتسم والبعض ينظر الى عدسة المصور فى دهشة •• أفلتت منى ضحكة خافتة وأعدت الصورة الى جيبى •

كان ضوء النهار قد بدأ ينسحب فتمددت الظلال واستطالت •• وهب بعض الهواء البارد بينما كان الظلام قد أخذ يقترب •• رفعت ياقة معطفى ونظرت أمامى عبر الطريق الى الحانوت •• لم يكن قد فتح أبوابه بعد فخفضت رأسى الى صدرى دسست كفى فى جيبى المعطف •

••••••

••••••

مع هبوط الظلام فتح الحانوت أبوابه •• بعد قليل جاءت ••

فى فتحة الباب وقفت الى جوار الرجل تحدثه بينما راح هو يشيح بيديه ويشير نحوى ففكرت فى أنه ربما كان يحكى لها عن زيارتى له هـذا الصباح •• اخرجت الصـورة من جيبى •• نظرت اليها بسرعـة ثم أعدتها مكانها وقفزت هابطـا من فوق السور •• اجتزت الرصيف فى خطوات سريعة ثم توقفت انتظر دور العربات •• وعندما خلا الشارع ركضت بسرعة نحوهمـا لكننى عندما وصلت لم تكن هنـاك •• نظرت الى الرجـل متسائلا لكنه تجاهل نظرتى واستدار داخـلا الى الحانوت •• هرولت حتى آخر الشارع وتلفت أبحث عنها لكننى لم أجدها فعدت أدراجى الى حيث كانت تقف •• لم أستطع أن أنظر الى الرجل فمضيت أقطع الطريق فى الاتجاه المضاد •• كانت هنـاك تسير وسط زحام الناس •• هبطت من فوق الرصيف ورحت أعدو خلفها حتى لحقت بها •• استدرت أقف أمامها •• واجهتها تماما •• نظرت الى مستغربة ثم مضت مسرعـة فتسمرت فى مكانى •• كان الرجـل قد خرج خلفى الى عرض الشارع •• نظرت اليه من مكانى فلمحت ابتسامته الساخرة •• حدقت فيه بغضب •• أخرجت الصورة من جيبى أريها له ثم طوحتها نحوه بقوة •• لفت الصـورة فى الهواء عدة مرات ثم استقرت على الأسفلت الأسود تحت عجلات السيارات •• استدرت مبتعدا أغادر المكان بينما كان الرجـل وسـط العربات منحنيا يلتقط الصـورة ••

الفهــرس

مطبـوعات

المجلس الأعلى للثقافة

رقـم

- ٢٧٨ -

القاهـرة

١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٣/١٠٠٠/٣٧٧٦
رقم الايداع ١٩٨٤/٢٨٤٠
الترقيم الدولى ٣ــ٠٣٣٧ــ٠١ــ٩٧٧